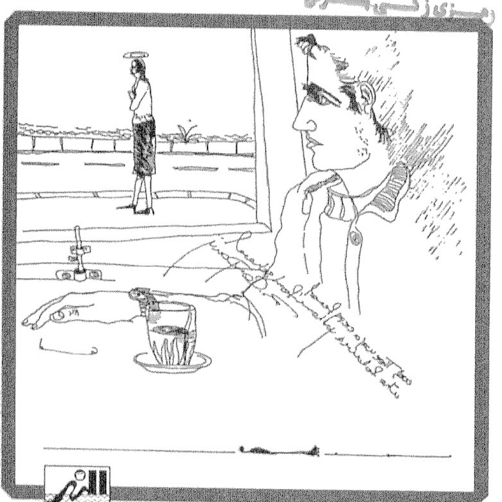
المبتسرون

دفاتر واحدة من جيل الحركة الطلابية

أروى صالح




المبشرون

المبشرون

تأليف : أروى صالح
غلاف: عمر جهان
لوحة الغلاف: مهداة من
الفنان عمرو هيبة
خطوط: حامد العويضى

الناشر
دار النهر للنشر والتوزيع
14 ش مصدق - القاهرة
ت: 3615383
5744846
فاكس: 3034592

التوزيع فى سوريا
دار الينابيع
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق ص. ب. 6384
ت: 3324914

التوزيع فى لبنان
دار الفارابى
بيروت ص. ب. 3181/ 11
ت: 305520

الجمع التصويرى
د. محمد فتحى
ت: 2800150

الطبعة الثانية
1997
القاهرة

رقم الإيداع
95/9875

الترقيم الدولى
977-5617-11-1

أروى صالح



١٩٩٧



إهداء

إلى ذكرى الفتى .. بهاء النقاش

مقدمة لا بد منها
عن الكيتش النضالي

كتبتُ المادة التى يضمها هذا الكتيب منذ خمس سنوات تقريباً، ولظروف خارجة عن إرادتى تأخر نشرها حتى صدورها الحالى وحين تسلمت البروفات لأصححها، فوجئت وأنا أراجع الفصل الأول بإحساس بالصدمة! كان الكتيب ينقسم إلى جزءين أساسيين؛ جزء أول يتعرض للظروف السياسية التى رافقت اندلاع الحركة الطلابية ثم خمودها، وجزء ثان يتعرض لتجربة هذا الجيل من حيث علاقته بجيل المثقفين اليساريين من جيل الستينيات ثم لمصائره بعد هزيمته. وما عدا ذلك يمكن اعتباره خواطر إضافية أو ملاحق لهذين القسمين الأساسيين. صدمت وأنا أقرأ القسم الأول (السياسى) بشعور بالغربة تجاه تلك الهموم الوطنية التى تقول السطور أنها كانت تشغلنى بقوة، وأن ذهنى كان يكدح بعنف ليجيب على تساؤلات كان أحدها: لماذا لم تعد هناك "**قضية وطنية**"؟ وإن كان فى صيغة مختلفة.

كنت قد كتبت هذا العمل وأنا أقول لنفسى إنه لأجل "**الأجيال التالية**" وقد قرر الحظ أن يسعدنى فيقابلنى رأساً بعينة من جمهورى المختار، مجموعة من المثقفين ـ الشعراء تحديداً ـ الذين يمكن أن نسميهم "**جيل الثمانينيات**" من باب التسهيل قياساً على جيلنا الذى اشتهر باسم جيل السبعينيات (والمقصود بالطبع من بلغوا أول الوعى فى هذا العقد أو ذاك، أى كانوا فى عشريناتهم فى مطلعه)، ومجموعة من "**التسعينيين**" أيضاً. ذهبت إليهم بمخطوطة كتيبى، يملؤنى الخوف والرجاء كما يقال، ولم تتأخر التعليقات: هل تكتب هذه السيدة لمجرد "جلد الذات"؟ لماذا لا تكتبين رواية بدلاً من ذلك؟ كتابك مادة يستعملها المؤرخ لكنه ليس التاريخ نفسه (وهذا صحيح). لكن أحداً لم يتوقف عند "**أفكار الكتاب**"، وإذا كانوا قد تكلموا عنه، فإن الكلام لم يتناول قطعاً ـ ولا مرة واحدة ـ "**القضية الوطنية**" التى أضنيت نفسى لأحل ألغازها. الجزء الوحيد الذى

استلفت نظر الجميع لم يكن قد كتب كجزء من الكتاب أصلاً، بل نصحنى بإضافته أديب محنك، وهو عبارة عن رسائل شخصية - كنت أظنها شخصية جداً، ولكنى أضفتها بناء على نصيحته "**كوثائق**"، وثائق شخصية.

كان من نتائج صدمة الالتقاء "**بأجيال تالية**" إدراكى - الذى اتسع تدريجياً بعد ذلك - أن وعيى ينتمى للماضى الذى أتعرض له بالنقد - وحتى الإدانة - أكثر مما كنت أظن بكثير، ذلك الوعى الذى يتعامل مع الحاضر كنوع من "**الخطأ التاريخى**" - على حد تعبير أحدهم - تماماً كما يعامل التاريخ كجوهر ("**الروح المطلق**" الآتى لجيلنا من هيجل عبر ماركس). ورغم كل المرارة التى يكنها أبناء جيلى - اليساريون بشكل أو بآخر - تجاه عبد الناصر ونظامه وزمنه، لا يستطيعون الإفلات من الحنين لذلك الزمن بالذات - وهى بالتحديد أبرز مفارقات هذا الكتيب، ليس فقط لأنه الزمن الذى شهد اندلاع حركتهم الطلابية، ومولدهم المدّوى كجيل - أول جيل من اليساريين تصفق له مصر المحروسة بأسرها، "**الجيل الذى قبض ثمن وطنيته قبل أن يدفع ثمنها**" كما قال لى بمرارة شيوعى قديم ممن شهدوا مجزرة عبدالناصر للشيوعيين فى عـام ١٩٥٩*، ولكن أيضاً لأنه - وربما كان ذلك أهم - لا يتصور فى الواقع وجوده خارج هذه الخريطة التى يدينها بالذات، الخريطة التى يحدها شرقاً المعسكر الاشتراكى وغرباً المعسكر الرأسمالى، وفى الوسط - بل القلب - حركات التحرر الوطنية فى العالم الثالث، لذلك فبرغم افتراضنا الماركسى (أو على الأصح "**الهيجلى**" بكل ما فيه من ميتافيزيقية) بأننا كجيل يحمل مفاتيح مستقبل العهد التاريخى الذى يعيشه، نمثل "**نفى**" زمن عبد الناصر، "**النقيض**" الذى يملك سكة "**تجاوزه**"، وأخيراً المعارضة الممثلة للطبقة العاملة التى ستنفى برجوازية عبد الناصر من فردوسها القادم حتماً - فهذا حكم التاريخ - والوطنى جداً بنفس الحتم، لم نكن فى الواقع إلاجزءاً لا يتجزأ من هذه الخريطة نفسها - يحتل هامشها بالتحديد، معارضة ماركسية بنت مجدها

---

* حملة اعتقال واسعة النطاق فى صفوف اليساريين، الذين قضوا فى الواحات خمس سنوات بعد ذلك.

الوحيد على عجز الحكم المؤقت فى "**حل القضية الوطنية**". وبرغم كل "**شقشقاتنا**" الماركسية والطبقية أيضاً - "**اللغة**" التى اخترنا (أو شاء لنا التاريخ) أن نتصور الواقع من خلالها - كان وعينا التاريخى وطنياً. وليس فى هذا شىء معيب - بل إنه منطقى تماماً - ولكن وهم "**التجاوز الماركسى**" الذى نتعامل معه بوصفنا عَينات حَية من المستقبل مزروعة فى أرض حاضر عابر، جعل لنا وعياً ملتبساً أدخلنا فى مسارات معقدة جداً على المستويين الفكرى والشخصى أيضاً. وحين انهدّت تلك الخريطة بعوامل التعرية - لا بفضل فعل ثورى "**متجاوز**" أو "**اشتراكى**" (فالقصد واحد) - وعندما تحول زمن عبد الناصر إلى ماض ضاعت معالمه، تُهنا! ولم نجد ما نتوكأ عليه فى المتاهة سوى الحنين. تعرى وعينا التاريخى وهو يواجه حاضراً لا يسير وفق نبؤاته الثورية فأخذنا نولول مع النادبين على "**زمن الانهيار**" - قياساً بالطبع على زمن عبد الناصر، الذى بقى منتصباً كصنم قديم، يبتسم لنا بنصف شفقة وبنصف سخرية عبر العقود، فبطولتنا كانت منحة زمنه، ودولتها دالت معه. نبكى على دورنا الصغير فى خريطته الكبيرة، والوهم الجميل بأنه سيكبر من وسطها ليأكل دوره (ثم نجلس أيضاً ذات يوم جنب رفيقنا الأعلى، الاتحاد السوفييتى). ونبحث فى الحاضر "**اللئيم**" عن ثغرة قد تنبعث منها أشباح الماضى - أشباح ليست بأية حال "**عمالية**" وإنما بالتحديد هى على وجه التحديد "**وطنية**". وهكذا بينما - فى الخريطة الجديدة - عاد عموم الشعب المصرى إلى حظيرة الإيمان، تشبث أبناء جيلنا بيقينهم القديم (كان أحدهم يسأل بالفعل الرفاق القدامى بعد انهيار الاتحاد السوفييتى حين يقابل الواحد منهم: أما زلت محتفظاً بإيمانك؟)

كان الدور القديم الصغير دوراً على أية حال، وإذ انتفى مع الخريطة التى جلبته للحياة، احتفظ أبناء الجيل بأيقوناته تعويذة يتمتون بها، يحفظون بها كيانهم المهدد بالفناء فى غياب الدور القديم، إلى أن يتغير الزمن، ويجئ الزمان، إلا أن موقعهم الحقيقى من الخريطة الجديدة لم يعد له جمال براءة الوهم القديم، ففى مصر الدرويشة، صاروا فى "**طليعة**" الدراويش. (وكأنهم - فى مكانهم المعتاد ذاك، فى الهامش - يحتلون نفس المساحة من الخريطة، فى

صورتها السالبة).

فى رسالتى الشخصية المنشورة هنا ـ وحظيت لدهشتى بالاهتمام الأكبر من الأجيال الجديدة ـ ساءلت نفسى عن الدافع الحقيقى لارتباطى بالشيوعية، واعتذرت مستحيية بأن هذا السؤال لا يجوز أن يتوقف عنده مناضل. وسيبدو السؤال لمن يقرأ هذا المؤلف بدون هذه المقدمة الجديدة مفارقاً لليقين الوطنى الذى يسود الجزء الأول منه (السياسى)، ولكن لعلّى إذ سمحت لنفسى بمساءلة شخصى غير المهم ـ لكن أبداً ليس **"الثوابت الموضوعية الكبرى"** التى يؤمن بها ـ كنت أستبق وعياً تاريخياً جديداً يبزغ فى ذهنى. فالواقع أنى فى اللحظة التى أكتب فيها هذه السطور ـ وليغفر لى أبناء جيلى إذا استطاعوا ـ لم أعد أعتقد أن إسرائيل أكثر شراً بكثير من أى من جاراتها ولا أشد جوراً والفارق الوحيد الجوهرى ـ فيما يبدو لى ـ هو أنها الأقوى حالياً وأعترف ـ آسفة بحق ـ أنى لم أعد أعتقد أن الفلسطينيين إذ تقوم دولتهم سيعدلون فيما بينهم. هل هى **"عدمية وطنية"**؟ حالياً، نعم تماماً* . فلست أجد كل المجازر الوطنية الدائرة فى العالم الآن ملهمة على الإطلاق. بل مثيرة للاشمئزاز وحسب. ومثلها العرقية والدينية. ولقد برهنت الأخرى **"الطبقية"** على قدراتها الخاصة فى هذا المجال أيضاً . أهذا حكم على نضالنا السابق بالعدم؟ من ناحيتى، أجد أنه يصعب الحكم بأثر رجعى، يمكن القول فقط أننا تفاعلنا مع حاضرنا (آنذاك) ـ مع ذلك الظرف التاريخى، بشكل مفهوم، بل مؤثر (عاطفياً أعنى)، وعدا ذلك فإن الرغبة فى استدعاء نفس الظرف مرة أخرى الآن، تتسم بالتحديد **"باللاتاريخية"** . أما من ناحية **"التاريخ"** فالحكم واضح، فقد قرر ألا ينصف أصحاب الحق (وإذا كنت أعرف رفاقى جيداً، فقد أحسن صنعًا) . ولكن التاريخ الذى ـ إذا أخذناه على محمل الجد ـ استطاع أن يسخر من مكاسب الثورة الفرنسية العظيمة نفسها، وكل الفكر الإنسانى التقدمى للقرن التاسع

---

* لا يحق لأحد بالطبع ان يطالب الفلسطينيين بان يكفوا عن الصراع حول حقوقهم ومصالحهم المشتركة، إنما خلع صفات مثل "الحق" على التاريخ، والأطراف التى تصنعه هو الذى أجده الآن مثالياً ـ ومرة أخرى "وطنياً"، وقد أضحت هذه الكلمة تعني الآن بوضوح "زائفاً".

عشر، لا الحركة الطلابية المتواضعة وحسب، ليس "جوهراً"، ليس روحاً يسبح فى الفضاء ويقوم - ضمن مهام أخرى - بدور الحكم، يصفق للمناضلين الذين "**يدفعون عجلته للأمام**" ويتوعد من يجرونها للخلف، إنه أحداث يصنعها بشر ليسوا "من طينة أخرى" كما وصف الشيوعيون يوماً ستالين، وغالباً ما يستقر مصيرها بيد أسواهم. يبقى أن أعترف أخيراً هنا - ولعل البعض يجد فى ذلك عزاء - أنى أدرك أن موقفى هذا محكوم بموقعى كمثقف هامشى يتأمل الأحداث ولا يؤثر فيها، لذلك فهو ليس "تبشيراً" بموقف سياسى، وإنما ببساطة نقلة شخصية فى الوعى بالتاريخ، أذكرها كما هى .

ونحن، ما الذى يبقى لنا من هذا التاريخ الذى هو بؤرة ماضينا ومركز وعينا، ضميرنا؟ وإذا لم نتشبث بماضينا ودورنا القديم بتلك الضراوة التى تحولنا فى عيون الأجيال الجديدة - التى نمنحها استشهادنا المؤمن بابتسامة حنان دامعة - إلى مومياوات باقية من متحف التاريخ، يتطلعون إليها بحياد إزاء المآسى علمته لهم حياة أكثر قسوة بكثير مما كانت عليه حياتنا، فماذا نفعل به ذلك الماضى، وأين نعثر على صورتنا الحقيقية منه؟ (وربما كان هذا هو السؤال الأكثر صدقاً - ومواربة أيضاً - وراء هذا العمل) هنا اسمحوا لى أن أحدثكم قليلاً عن "**الكيتش**" النضالى.

فى واحد من كتب الأستاذ محمد حسنين هيكل - الذى تعودت أن أقرأه بمقت أخلاقى بحكم الانتماء السياسى - يتكلم عن صنف الشبان الذين يقررون الانضمام لمنظمات نضالية - أياً كان نوعها شيوعية أو دينية - فيقول ما معناه - ومعذرة لأنى لا أذكر اسم الكتاب ولا نص الكلام - إنهم شبان يبحثون عن حماية ودفء الجماعة. الشاب الذى ينضم إذن لجماعة مناضلة (أو مجاهدة) عنده - بحكم التعريف - مشكلة، أو تلك هى صورته عند كاتب هو أولاً: خصم، وهو ثانياً: الرجل الذى نضج مستدفئاً بحماية السلطة، ولم يعد شاباً عنده مشكلة - كما كان هيكل بالقطع ذات يوم.

لماذا إذن كنا ننضم جماعات ووحداناً إلى الجماعات النضالية الرائجة

فى زمننا؟ أكنا نستجيب لنداء التاريخ، لعدل ميزانه، كما كان سيجيب الواحد منا دون إبطاء لو سئل يومئذ، أم لدوافع خفية كما يلمح هيكل؟ ("لنداء الله" يجيب عضو الجماعة الدينية الشاب اليوم، وأستطع الآن أن أقدر شعوره بالإهانة، حين يفسر المفكرون فى أجهزة الإعلام مبادرته "**لعدل الميزان**" بدوافع خفية، الإحباط والكبت الجنسى). عدا أقلية، فالأرجح أن كلتا الإجابتين صحيح، يستجيب قسم من الناس لحالة جماعية من الوعى - دعنا من ملابساتها التاريخية الآن - يبادرون للحركة، لعدل ميزان الحق أو التاريخ - الأعوج دائماً، وخلالها يحاول الواحد منهم - بنبل إن استطاع أن يقفز على أزماته الداخلية (وليس فى الأزمات الداخلية ما يخجل، فبدونها يصعب تصور الموهبة العالية للأستاذ هيكل). لكن فى كل الأحوال لا يحق لمخلوق مساءلة مناضل (أو مجاهد) عن دوافعه الخفية، أن يشدها لدائرة الضوء إلا فى عمل أدبى أو اعتراف شخصى، وعدا ذلك يستحيل أن تخلو هذه "التعرية" من دناءة سياسية. وما بين الدوافع الخفية و"النداء العام"يوجد وسيط، سماه أديب كبير "الكيـــتش"(*) والكيتش حسب أول تعريف له قدمه الأديب هو كلمة ألمانية انتشرت فى القرن التاسع عشر العاطفى على حد تعبيره، والكلمة الألمانية تعنى نفاية، وصارت إشارة معتمدة للأدب والفن الهابط وبهذا المعنى دخلت القاموس ما بعد الحداثى، المتسامح كما هو معروف إزاء هذا النوع من الفن. غير أن الكاتب يستخدم الكلمة هنا فى سياق خاص - فيما يبدو لى - سياق يشير إلى نوع من أنواع الرومانسية، والعاطفية "المستبدة". وليتقبل القارئ مؤقتاً تصورى الخاص عن استخدامه لهذا التعبير فى الرواية، والذى يجعله مرادفاً، "**لحلم الخلاص الجماعى**" بهذا المعنى يمكن القول أن هناك نظريات عدة تقابلها أنواع عدة من الكيتش، فهناك الكيتش الكاثوليكى والبروتستانتى واليهودى والشيوعى والفاشى والديمقراطى والنسوى الأوروبى والأمريكى،

(*) الكاتب هو الأديب التشيكى " ميلان كونديرا"، وحديث الكيتش جاء فى رائعته "كائن لا تحتمل خفته". الرواية عن العلاقة بين الرجل والمرأة - الخفة والثقل فيها، أو الحرية والمسئولية، والكاتب لا يكره أحداً.

والقـومى والأممى (ويمكننا أن نضـيف بالطبع "**الإســـلامـى**"). وفـيـمـا يتـعلق بالكيتش اليسارى، هناك "**المسيـرة الكبـرى**"، هذا الشىء الـرائع للأمـام باتجـاه الأخوة والمساواة والعدالة والسعادة. جميل أن تحلم بأن تكون فى عداد جماعة تمشى قدماً عبر العصور. إن مـا يجعل اليسارى يسـارياً، ليس هـذه النظرية أو تلك، بل مقدرته على إدخال أية نظرية كانت إلى الكيتش الذى يسمى بالمسيرة الكبـرى. ذلك أن هوية "الكيـتش" لا تتحدد من خلال استراتيجية سياسية، بل من خلال صور واستعارات ولغة معينة (وهذه الفكرة الأخيرة اكتشاف فذ بحد ذاته). وفى مملكة الكيتش التوتاليتارية تُعطى الإجابات مسبقاً محرمة بذلك أى سـؤال جديد. لذلك فبـقـدر مـا أن الكيتش هو - فى آخـر المطاف - المثال الأعلى لكل السياسيين ولكل الحركات السياسية، يكون الإنسـان الذى يتساءل هو العدو الحقيقى للكيتش، ولذلك فإن الكيتش: قناع يخفى وراءه الموت. هذا فى رأى الكاتب التشيكى على الأقل، فمـا سبق هو مجموعة من عباراته فى الكلام عن الكيتش، مجموعـة هنا دون تصـرف تقـريبـاً. ومع ذلك فلم أقـدم للقـارئ حـتى الآن تعـريفـه الخـاص للكيـتش، والذى يقع بالضـبط عند نقطة التـمـاس بين "**النـداء العــام**" (أو نداء الواجب) وبين الدوافع الخـفـيـة. ومن ثم يفسر لقاءهما، إنه: "**الوفـاق التام مع الوجود**". الوفاق التام كرغبة محرقة عند أناس يشعرون بالضبط بعدم الوفاق مع أنفسهم ومع العالم - كأنهم خلاصة لإحساس أشقائهم البشر بالنقص الكامن دوماً فى الكائن الإنسانى (ربما خفته التى لا تحتمل)، والسـاعى أبداً للاكتمال (لثقل يمنحه جذوراً، وربما استمرارية قد تتغلب مرة فى صراعه الأبدى ضد الموت)، تلك الثغرة فى الوجود الإنسانى، التى من توترها بين الحلم والواقع - بين الأمل فى الوفـاق التام والعـجـز عنه - تصنع المواهب الكبيرة، وأيضاً كل أنواع الإحباط والفشل والجريمة.

غير أن لحلم الوفاق التام ككل أوضاع وصور الوجود الإنسانى - معضلاته (أو "**تنـاقـضـاته**" إن استخدمت تعبيراً هيجلياً - عميقاً جداً بالمناسبة)، فلكى يثمر حقاً ينبغى أن تصدقه بما يكفى كى تقامر - تقامر حتى بوجودك كله فى لحظة، وهو بالضبط مـا يفعله المناضلون فى لحظة انتشاء بإمكانية "**تجــاوز**"

الوجود الفردى والمصير الفردى (ولقد عرفنا كلنا ـ حتى أسوأنا ـ حلاوة هذه اللحظة، إنها لحظة حرية، لحظة خفة لا تكاد تحتمل، من فرط جمالها). ولكنك لو صدقته إلى حد بلوغ حالة من "**الوفاق التام**" بالفعل ـ الوفاق التام مع الذات، أو مع الكيتش (حلم أو أسطورة الخلاص الجماعى)، أياً كان الكيتش الذى اخترته لنفسك، فقد دخلت رأساً دائرة ملؤها الشر بل الجنون. حينئذ تفقد التسامح، لا تعود مستعداً لقبول أى تناقض مع الكيتش ـ إذ لا يعود البشر بالنسبة لك عوالم حية، أى متناقضة، بل أشياء تضعها على سرير بروكست الذى يحدده الكيتش (دينياً كان أو شيوعياً) ـ تقطع رأس هذا، وتمط رجل ذاك، كى يتلاءما مع طول السرير، مع قالب الكيتش. تغدو أكثر ثقلاً من غطاء حجرى لقبر، جدرانه "**يقين**" فمشكلة الكيتش أنه "**يطرح جانباً كل ما هو غير مقبول فى الوجود الإنسانى**" حتى أن الأديب يصفه فى تعريفه الثانى له بأنه "**نفى مطلق للبراز**"! تلك القناعة المطمئنة بإمكانية الكمال الإنسانى فى المجتمع الاشتراكى أو الشيوعى، أو بأن الحزب الشيوعى هو "**أرض محررة**" للشيوعية والشيوعيين فى المجتمع البرجوازى (وهو كلام كان يردده مناضلونا)، تلك القناعة التى ترفض مطمئنة واثقة كل تناقض، كل اختلاف سوى الاعتراف السعيد ـ الأبله ـ بالتوافق التام مع الكيتش "**المختار**"، تلك "الأخوة الباسمة" فى المسيرة الكبرى (أو فى الله) هى القناع الذى يخفى الموت بل الجنون، فبفضل هذا اليقين أُرتكبت أفظع مجازر الشيوعية ـ وكذلك توافهها المهينة للعقل ـ الرهيبة لهذا السبب، حتى فى جماعاتنا التى لم تواتها الظروف كى تمسك بسلطة، وهى ذاتها التى تلهم شباناً مؤمنين اليوم ببرودة قلب القَتَلة. فقط "**حين نتعامل مع الكيتش بوصفه كذبة جميلة، لا يعود كيتشاً، إذ يفقد مقدرته السلطوية، يصبح مؤثراً ككل ضعف بشرى**"* وهو ما لا يتسنى لك ـ فى حالة أبناء جيلنا أعنى ـ إلا على امتداد رحلة، رحلة تصديق وحب ـ مُثخنة، ورحلة عودة ـ لا إنكار فيها، وهذا شرط. إلى ماذا تعود؟ للمجتمع البرجوازى (عودة

---

* كل ما ورد داخل علامات تنصيص مقتبس من الرواية

ابن ضال)، إلى الذات، لحلم قديم تطارده؟ ألف احتمال. كل الأمر يتوقف عليك أخيراً، تماماً.

تساءلت فى بداية هذا الجزء عن "**صورتنا الحقيقية**" - أو بالتحديد "**حقيقتنا**"، وأجيب الآن بأنه - عدا ما استعنت به من رؤية الكاتب الكبير، فالإجابة عبء فردى تماماً. فحقيقتنا الجماعية - على أهميتها - التاريخ والطبقة (البرجوازية الصغيرة فى حالة معظمنا) ستظل نصف حقيقة بالنسبة لكل فرد لم يفلح الكيتش فى أن يدهس فرديته تماما (وأشك أن هذا ممكن، فحتى من يتشبثون بالكيتش الشيوعى اليوم، إنما يفعلون ذلك لأنهم لا يستطيعون أن يحققوا فرديتهم خارجه) وقد حاولت فى هذا الكتيب أن أرسم نصف الحقيقة الأول هذا ، من نحن؟ ما هى تجربتنا؟ أى بتعبير آخر، على أى نحو هُزمنا؟ وماذا فعلنا بعدها؟ (وهو ما يستغرق الجزء الثانى من الكتيب)، ولا أعتقد أنى لو كتبته الآن سأغير كثيراً فيه. وإذا كنت قد تركت الجزء الأول (السياسى) على حاله - رغم افتراقى الصريح عنه الآن - باعتباره جزءاً حياً من ماض انقضى، وأيضاً عّينة من تفكير جيل فى القضية الوطنية، ومرآة لذلك الوعى المتناقض الماركسى - الوطنى فى آن واحد، بحكم وضعيته بالذات فى خريطة وعى قديمة (فصيل ماركسى صغير فى خريطة، حركتها الفعلية وقيادتها الفعلية وطنية)، يظل صحيحاً بالنسبة للعمل كله، أن "**الحقائق**" التى يمكن أن تبقى منه بعد إسقاط الأيديولوچيا - إن كانت ستبقى منه حقائق، هى بالتحديد الحقائق التى حصّلتها من رحلتى الخاصة وراء "**الكيتش**" الخاص بى، وهو ما تمثله جزئياً الإجابة على سؤال "**لماذا ارتبطت بالشيوعية**"؟ الذى اجترأت عليه فقط فى رسالة شخصية منشورة هنا. لقد اعترفت هنا بإحساسى بالصدمة عند الإطلاع على الجزء السياسى من الكتاب، ليس إزاء "**موقفى السياسى**"، بل إزاء اهتمامى بالسياسة أصلاً (أعتقد أنى افهم الآن شعور عضو الجماعة الدينية السابق، إزاء الخلافات الفقهية "**مثلاً**" بين إخوانه

القدامى. لقد سقط الكيتش، وبقى وجهاً لوجه مع دوافعه الخفية) غريب أن تنتبه دفعة واحدة، تتذكر فى لحظة، أن المشوار الذى قطعت فيه العمر بدأ دون حب لموضوعه الفعلى، المعلن، المشترك (النضال السياسى)، بل تحت عبء باهظ بالإحساس "**بالواجب**" أحقاً! (نداء الواجب)؟ تقول الرسالة أشياء أخرى مع ذلك. غير أن الكيتش نفسه ـ ذلك الذى يقبع فى مكان ما بين الدوافع الخفية ونداء الواجب ـ حكاية أخرى. فخلف كلمات السياسة والتاريخ، الوطن والطبقة، النضال والشعب تقبع مفاتيح أخرى لا تتصل بكل تلك الكينونات المفترضة إلا بقدر ما هى وسائط لإشباع مسعى يرجع لأول الصبا، وليست مصادفة أن أول عبارة فى هذه السطور تتكلم عن "**الأخلاق**"! الأخلاق كسبيل ينظم فوضى الحياة ـ قسوتها "**غير العادلة**" ـ أمام روح تشعر شعوراً جازماً بنقصها الخاص، بعجزها. ومن ثم تلتقط بلياقة خاصة ـ لياقة المجروحين ـ صور اللاعدالة فى الحياة، ما لا يجب أن يكون، وتبحث بلهفة مفهومة عن العدل وعما يجب أن يكون، عن حلم يضع بين يديها كل هذا. بالنسبة لهذه الروح تصبح "**رحلة السياسة والنضال**" ذريعة لتحقيق مسعاها الأصلى ـ هذا على الأقل ما يتبين حين يسقط الكيتش وتبقى وجهاً لوجه مع ذاتها، حيث تصبح المعرفة الأخلاقية ـ إن جاز هذا التعبير ـ سلاحاً يكاد يكون خبيئاً لتجاوز خبرات الألم، تجاوز يُنجز ويُخترق باستمرار، ويصنع أثناء ذلك رغم كل شىء ما كان يسعى وراءه منذ البداية، معرفة، معرفته الأخلاقية. وتلك بالضبط هى المعرفة المنطوقة هنا خلف السطور، خلف أحاديث السياسة والطبقة، وحتى خلف صور "**البورتريه**" الشخصية العديدة المدمجة فى نماذج مجردة، معرفة تنتزع بضراوة تقريباً من كل هؤلاء، نوعاً من العدالة تعلمت اكتشافه بقدر ما طلبته. لذلك وبينما يستقر الشكل النهائى لهذا الكتيب ـ الذى حار الأدباء بصفة خاصة فى تصنيفه ـ على نوع من أدب الاعترافات، أقترح على القارئ ـ بجد ـ أن يقرأ ما يلى كلغز كلمات متقاطعة، مفتاحه هنا فى هذه المقدمة! ■

المقدمة

يتعرض هذا العمل لتجرية جيل الحركة الطلابية، وهو ذلك الجيل الذى كان فى أوائل عشرينياته فى عامى ١٩٧٢ و١٩٧٣، حين خرجت المظاهرات الطلابية بالألوف فى الشوارع، من كل مكان وجدت به جامعة فى مصر، يرفعون مطلباً يبدو وقعه الآن غريباً على الأذن: الحرب مع إسرائيل! تحف بهم مظاهر احتفال هائل من كافة أبناء الشعب الذى انتقل فجأة من انكسار الهزيمة وكدرها إلى بهجة عارمة، وكأن تلك المظاهرات كانت بذاتها سيفاً سحرياً اكتشفوه فجأة فى مواجهة الهزيمة التى أحكمت حلقاتها وأجمع الكتاب "الوطنيون" على أنها قدر، كأنها حملت وعداً غامضاً بالنجاة، ولقد بقى الوعد غامضاً حتى دفنه النسيان تحت ركام من وقائع غليظة ليس فيها متسع للأحلام وترهاتها.

هى عودة إذن لزمن الهزيمة، ولكنها أيضاً عودة - على ما يبدو فى ذلك من مفارقة - إلى زمن كان فيه الحديث عن أحلام الوطن لا يثير الهزء، بل حواراً حاداً مفعماً حرارة وجدية فى كل بيت. قبل هذا الزمن كانت الحياة فى ظل عهد عبد الناصر تبدو أبدع من أى حلم، الفقراء يتعلمون وتُفتح أمامهم سبل الصعود الاجتماعى بالجملة، والانتصارات تتوالى على الاستعمار، تأتيهم فى بيوتهم دون أن يتجشموا أى عناء، أنباء فى الراديو عن غزوات الزعيم. وكل متشكك فى هذا الحلم المعيشى إما مجنون أو به بطر، وهو فى الحالين منبوذ. ولكن الهزيمة رشقت الأسئلة بلا رحمة فى قلب هذا الحلم، حينئذ بَدونا كشعب يحاول بعد طول نسيان أن يستعيد قدرته على التفكير، وتركه النظام الذى انكسرت هيبته الغشوم بالهزيمة، يلهو بهذه اللعبة الخطرة إلى حين. واندفع المثقفون كل الفئات المتعلمة يعيدون فتح كل الملفات المحرمة، وتجرأ المبدعون على مناورة الرقيب، يقولون كلاماً "خطيراً"

تماماً بقدر ما كانت تستقبله تربة متعطشة تبحث عن طرق جديدة تسلكها، عن إلهام، لشعب لم يكن قد استولى عليه اليأس بعد. لهذا كان زمن الهزيمة، هو الأكثر حيوية على كل مستوى يمكن تخيله فى كل تاريخ نظام ثورة يوليو ، حيوية لم يعرفها الشعب لا قبلها ولا بعد "النصر" وفى هذا الزمن بالذات اندلعت الحركة الطلابية.

ولكن هذا العمل القصير لا يستحضر ذلك الزمن كله، ولا يتناول فئات الشعب كلها. بل يسترجع خبرة شريحة خاصة منه، هى مجموعات الطلاب التى تصدت بشكل أو بآخر لقيادة المظاهرات وتنظيمها ورفع شعاراتها، ومن عنفوان الشارع اكتسب حلمها جبروتاً ـ فقد كان التظاهر نفسه حلماً عصياً حتى ذلك الحين، ليطمع فى تغيير مستقبل الوطن بأسره، فى إنقاذه. ولعل السذاجة فى هذا الحلم تثير الآن الابتسام ـ ربما من أبناء جيلنا أكثر من أى أحد آخر ـ ولكن ما هو أقسى كثيراً، فيما أظن، حظ أجيال لم يتح لها أبداً أن تعرف أحلاماً كبيرة، ومن أجل هذا كتبت عن حلمنا المجهض، لأنه لم يكن سراباً كله كما يلذ لكثيرين منا الآن أن يصفوه ليذلوا ماضيهم ـ إمعاناً فى رد الفعل على غرورهم السابق فيما أحسب، ولكنه كان تاريخاً أيضاً تبقى منه أشياء حقيقية، غريب أن نهدرها لأننا نحن هُزمنا بسهولة أهانتنا. وبالنسبة لى فقد احتفظت من هذا التاريخ بذكرى زمن شهدت فيه شعبنا ومثقفينا أحياء ما يزالون ـ رغم المواجع، وبيقين: أن هناك أياماً أخرى فى التاريخ غير مظلمة.

عن هذه المحاولة لذلك الجيل يدور الكلام هنا، عن الظروف التى رافقت اندلاع الحركة الطلابية ثم الانقطاع الفجائى فى تيارها، والتجربة التى مر بها أولئك "القادة الصغار" خلال تلك المحاولة، مصادر إلهامهم وخبراتهم وعلاقاتهم خاصة بالجيل السابق عليهم، جيل الستينيات من المثقفين واليساريين المصريين، والملامح التى اكتسبوها وميزتهم كجيل من قلب المشهد التاريخى الفريد الذى شهده: بلوغ العهد الناصرى ذروة حيويته،

ثم انهياره العاصف الذى أفلح ـ خلافاً لكل التوقعات، فى أن يأخذ بتلابيب الوطن بأسره، ليقضى على كل الوضع التاريخى الذى نشأت فيه الحركة الطلابية واتخذت موقعها من أحداثه ومسارها ، وينتقل إلى مشهد جديد تماماً بهموم وأحلام مختلفة، لا مكان فيه ولا فيها للحركة الطلابية ولا حاجة بأيهما إلى جيل المناضلين والمثقفين الذى ولدته التجربة التى ما كاد يبدؤها وهو فى أول مشواره فى السياسة والإبداع والحياة العملية، تُبتر مع اندثار العالم الذى حملها إليه وأصبح فجأة قديماً، ليصبح أبناؤه مشاريع لم تكتمل أبداً، جيلاً من المبتسرين.

موضوع هذا العمل إذن ليس التاريخ والسياسة حتى حين يتعرض لهما، وإنما تتبع خبرات ومسارات جيل له ملامح متميزة عما سبقه من أجيال نشطت فى الحياة السياسية والفكرية، ومن هنا كانت الإشارات للمناخ الذى عاشه، وإلى نظرته وفهمه للظروف السياسية التى كان يتحرك فيها، ومن هنا تخصيص أجزاء عن مصائره الشخصية بعد هزيمته، لذلك من الضرورى هنا أن أوضح هنا أن هذا العمل ليس توثيقاً تاريخياً ولا جدلاً سياسياً وإنما هو رؤية شخصية للأحداث التى عاشها جيل أنتمى له* كيف عاشها وتشكل بها؟، وبهذه الصفة فقط أتحمل مسئوليته كاملة، وما أطلبه له يتصل بالصدق والأمانة أكثر مما يتصل بالدقة أو حتى الموضوعية. ولعلى يجب أن أشير هنا سلفاً إلى مواضع فى الكتابة اتسمت بالعنف والمرارة التى عابها علىَّ بعض الأصدقاء الذين قرأوا هذا الكتيب قبل طباعته، ويبدو لى أن أولئك الذين يستطيعون دائماً أن يحموا جلودهم من خدوش السير وراء أحلامهم، قدرتهم أقل فى الواقع على إبصار تجاربها، وموضوعيتهم ترف لا يعبر بالضرورة عن إخلاص أكبر. لا ينفى ذلك أن ما يلى قد يكون مشتملاً على بعض التجنى، غير أن هاجساً أساسياً من هواجسى لدى كتابة هذا

* بسبب هذا الاعتماد على الخبرة الشخصية استبعدت أحداث ١٩٦٨ الطلابية وقادتها، الذين أظن أن لهم سمات مختلفة بعض الشىء عن جيل السبعينات.

العمل، كان أن أقدم للأجيال التالية التى قد تشغلها تجربتنا، تراثاً يجب أن يجحدوه، وفى هذا ليس لدى فصال.

يبقى اعتذار آخر لهواة الأدب ومحترفيه، الذين اعترض بعضهم بأن هذا العمل لا ينتمى لأى جنس أدبى. ورأى البعض أنه يفتقر للإحكام فى الشكل. وهذا أمر لا حيلة لى فيه، لقد كتبته بدون قرار مسبق بشأن شكله، كنت معنية بنقل تجربة ونقلتها كما أحسست بها دون أن تحكمنى أية اعتبارات أدبية - سوى أكثرها بدائية ولزوماً. وكل ما اتمناه هو أن تصل للقارئ، بوضوح ، أن أعيد للذاكرة بعضاً من ملامح زمن وناس عاشوا فيه. وعدا ذلك فلست أزعم لهذا العمل قيمة أدبية بالذات، بل أعرف أنى تمنيت لو امتلكت هذه الموهبة حين اكتشفت مع الانتهاء منه أن ما قصصته لا يعدو جزءاً يسيراً من الحقيقة التى لا يقدر على توصيلها كاملة إلا الأدب. ■

الفصل الأول

المثقف متشائماً

غدر الزمان يا قلبى ما لهوش أمان
وحا ييجى يوم تحتاج لحبة إيمان
قلبى ارتجف وسألنى.. آآمن بإيه؟
أأمن بإيه محتار بقالى زمان.

عجبى !

"صلاح جاهين"

١ـ ثمناً للصعود

يرفض المثقف أخلاق كل الطبقات فى مجتمع يدينه، ولكن أخلاقاً مختلفة لم توجد بعد، فالبشر الأخلاقيون ما يزالون بعد أمراً فى علم الغيب، فتأتى قفزته من أرض "الأخلاق البرجوازية" إلى الهواء الطلق حيث يكتشف نعيم الحرية، من كل أخلاق فيلمّ فى حجره المفاسد الأخلاقية لكل الطبقات، ثم يطلق ذقنه ويدعو نفسه "مغترباً" وذلك قبل أن ينجح ذكاؤه أخيراً فى اصطياد مقعد محترم فى الهيئة الاجتماعية (قد يعلن منه مع ذلك فى التليفزيون ـ إن بلغه ـ أنه فنان "ملتزم"، وهو ما يفهم منه المشاهدون ـ محقين ـ أن شيئاً حول هذا الشخص يبعث على الملل)، فيحلق ذقنه ويستقر أخيراً على أن "العدم" هو الحقيقة الوحيدة للعالم، وإن لم تمنعه فلسفته العدمية من الإفراط فى الأكل والشرب الفاخر فى مجالس الطبقات التى صعد إليها بفضل تمرده عليها وإدانته لها، والتى لا ينسى مع ذلك كرهه القديم لها بوصفه برجوازياً صغيراً ـ خاصة وأن جلساءه لا ينسون أيضاً هذه الحقيقة الأخيرة ـ بل ويمتع نفسه باحتقار من زالت أوهامه عنها (فى سره طبعاً)، وهى مشاعر متبادلة على كل حال، ففى هذه المجالس يكثر المتحررون من الأوهام ويبقى الأكل والشرب هو الحقيقة الوحيدة المؤكدة فى الجلسة ـ من الناحية "العاطفية" على الأقل ـ لذا فإنهم لا يكذبون كل الكذب حين يعلنون "العدم" دينهم الأخير.

٢ـ فى انتظار وظيفة

ولكن هذا ليس سوى صنف واحد من أصناف المثقفين المتشائمين فى بلادنا، وهم كثر، فسكة العدم صارت كلها مسالك فى هذه الأيام، فمن

المفارقات أن هناك مقعداً دائماً فى مجلس العدم "للماركسى" الباحث عن دور. كان مثل هذا المثقف فى الستينيات، هو ذلك الذى حددت له سلطة عبد الناصر دوره، اعتقلته فترة كافية ثم أخرجته وعينته فى إحدى مؤسساتها العامرة فى ذلك الزمن، وكان ملزماً أن يغنى من قفص، أو يذوى فى عزلة غامرة جدرانها الشعب ذاته، الملتف حول الزعيم. كان يعرف أكثر مما يستطيع أن يقول، ولا يستطيع أن ينتحر فى قبر الصمت، فاكتفى بنصف أغنيته، ولم يغفر لنفسه ذلك أبداً، ربما أكثر من جميع من أدانوه، وكانت تلك هى سكته للعدم.

٣ ـ السقوط قبل الأوان

ومن سخريات الحياة المرّة، أو التاريخ إن شئتم، أن جيلنا من المثقفين أو اليساريين أو المناضلين (أو من أشباه هؤلاء فى حالات كثيرة)، جيل السبعينيات الذى قسا وهو يهيل التراب على هذا الجيل، على ترهله ويأسه وحتى "خيانته" (هكذا بالجملة إذ كان ما يزال بعد يلعب فى الحركة الطلابية ظناً منه أنه يصنع التاريخ الذى بدا حينئذ صناعة سهلة، إلى حد كان يجب أن يلفت النظر، لو أن لنا عيوناً، ولكننا كنا أصغر من أن نرى). هذا الجيل ذاته يتساقط ناسه اليوم على موائد العدم بالجملة دون أن يكون قد سمعه أحد يشدو حتى بربع أغنية! وما زالوا يبحثون عن دور أصغر كثيراً فى معظم الأحوال من ذلك الذى حققه مثقفو الستينيات، الذين أشجونا ـ حتى بنصف الأغنية ـ أدباً وشعراً يخترق الحزن الصادق فيه كل الأكاذيب ويصنع فناً يستحق هذا الوصف، بل يعد بمشاريع عملاقة أحياناً، ولكن التاريخ لم يمهلهم وعاجلنا قبل أن نبدأ. فنحن أبناء الزمن الذى فقد فيه حتى الحزن "جلاله" صار مملاً هو الآخر، مثل "البرد" مثل "الصداع"*، والملل لا يصنع فناً، فقط أناساً مملين.

---

* رحم الله شاعرنا العظيم

٤. حكايتان من خندق واحد

إنما يظل العنصر المشترك وجه "**الاستمرارية**" الأكثر صدقاً بين الجيلين، والأكثر غرابة ومأساوية، هو تلك الخلطة المتميزة من المواقف الفكرية الراديكالية، والمواقف الوجدانية العدمية! ولكن الغرابة هى طبيعة كل حقيقة فيما يبدو، فالجوهر المشترك فى هذه الخلطة ـ التى اختلفت اسبابها كثيراً وتطابقت أحياناً مهمة أيضاً ـ هو الهزيمة، فى حالتهم كان الظرف التاريخى أقوى من طاقتهم، اكتسحهم انتصار عبد الناصر الذى أفاد بصورة فذة من ظروف تاريخية مواتية (وعلى رأسها المفارقة التى صنعها وجود الاتحاد السوفييتى، الذى خدم توطيد أقدام برجوازيات العالم الثالث، بينما كان يعاقب "**الخارجين**" عليه فى المعسكر الاشتراكى ويحكم قبضة السيطرة على الباقين). كانوا أبناء الحقبة التى شهدت مصر فيها آخر حركة شعبية حقيقية، وهى التى جلبتهم للحياة كظاهرة، ثم داهمهم عهد جديد غريب، يتصرف فيه الحكم باسم الشعب ولأجل الشعب ويقمع الشعب بالذات، فسقطوا فريسة النقلة الضارية بين زمنين كان الدفاع عن أيهما مراً. وانقسم الكيان الذى ينتمى للشعب بكامل نشأته، ويغترب عنه إذ يرفض التصديق فى النظام الذى سحر فؤاده "**بمنجزاته**" ثم يغترب عن نفسه إذ يعجز عن أن يكنّ العداء لنظام يخوض معارك ضد الاستعمار، ولا يؤدى انفراده بساحة القتال إلا لزيادة بريقه عند الشعب القابع يتفرج على "**المعركة**". ولو استطاع أن يكرهه تماماً، كلية، لكان بليداً حقاً إذ يعزل نفسه عن المعركة الوحيدة الدائرة، التى لا يحارب الشعب أخرى غيرها كى يترك هذه لتلك، لذلك فقد انتمى جزء منه ـ هو أيضاً ـ إلى ذلك النظام الذى يقمعه ويقمع الشعب ـ ثم يعود فيلفهما من حوله ـ ودائماً باسم الوطن. لقد تهاوت الحدود التى كانت واضحة حتى الأمس القريب بين الحقيقة والزور، والخصوم والحلفاء، وأيضاً بين الصواب والخطأ، ما العمل وماذا لا يجوز أن يعمل؟، وما عاد هناك معيار موثوق حتى لو انطلى بالماركسية. فتوزع بين كل

ذلك وكل هؤلاء واغترب عن الجميع وكان فى الموكب وحيداً. لم يكن هناك مفر أن يكون لهذا المثقف أكثر من كينونة وأكثر من وجه وأكثر من ضمير، ولا عجب أن يفقد تلك القدرة التى تقيم الكيان وتلهمه وحدته، القدرة على على التصديق.

وفى حالتنا، وللسخرية المرّة أيضاً، كان الظرف التاريخى أقوى من طاقتنا كذلك، فالنظام الذى اكتسحهم بانتصاره، اكتسحتنا هزيمته! حين جرّت الشعب وراءها بأسره إذ كان مرصوصاً وراءه بالفعل - من ايام الانتصارات، وحين استفاق، كانت قد وقعت الواقعة. لقد ظننا أننا أبناء عهد جديد، يبدأ فيه الشعب رحلته المستقلة عن نظام عبد الناصر بعد طول تبعية، ولكننا كنا مخطئين، فالحركة الطلابية بنت زمن عبد الناصر وأحلامه أكثر كثيراً مما يظن بعض قادتها* حتى اليوم. "**فالجماهير**" المنطلقة فى الشوارع لم تكن "**خلقهم**" بالقدر الذى تصوروه، لم تكن فاقدة الثقة بالنظام بنفس القدر الذى لديهم، والذى استمدوه من منبع منفصل عن تجربة تلك الجماهير، وهو قنواتهم مع مثقفى الجيل السابق من المثقفين وللمناخ الفكرى التقدمى لزمن عبد الناصر وسط المتعلمين عامة، أكثر منه امتداداً لحركة شعبية مستقلة عن نظام عبد الناصر فهذه لم يكن لها وجود من الأصل (بفضل عبد الناصر)، وهو المناخ الذى كان "**يتسامح**" إزاء الماركسية والماركسيين تسامح الأقوياء مع أحلام لا تضر، مع أنه كان يسرق لغتها، لفقر حال منبعه الروحى الأصلى - لا المستعار - أى الفكر البرجوازى، فالحال الذى كانت قد بلغته البرجوازية العالمية وقت صعود عبد الناصر. لم يكن ينفع لغة أحلام تغيير وجه الدنيا، كانوا قد سبقونا إلى "**الواقعية**" التى نغص بها اليوم. وقد اختلطت الرؤية الناصرية بالرؤية الماركسية اختلاطاً لم يسمح بالتمييز بينهما فى حالات كثيرة، إلا بعد أن حل الانحسار.

---

* وليصبر المعترضون على هذا اللقب فلن يدوم استخدامه طويلاً.

٥ـ الحركة الطلابية، بداية أم نهاية!

أما هذه الحركة الشعبية فقد كان فى رؤيتها للأمور من الناصرية أكثر بكثير من أى وعى بما يفصلها عنها، ولعلها مثلت بداية ممكنة **"لاستعادة الوعى"** ولكنها تبقى مجرد احتمال بداية (لم يتحقق فى النهاية). لأن تجربة الجماهير الغفيرة من الشعب مع هذا النظام لم تكن قد أنهت بعد ما بينها وبينه من روابط، كانت تريد من هذا النظام أن يحارب، إذ لا يدور بخلدها أن يخوض غيره المعركة مع الاستعمار (فعلى ذلك عوّدها)، فضلاً عن أن يكون هذا الغير هو هى نفسها، لوحدها! إن الطلاب الذين كنا نقنعهم بضرورة خوض حرب تحرير شعبية، لم يخطر لهم ببال أننا ندعوهم لسكة مستقلة عن النظام. ربما لو كان ذلك الوضع المعلق ـ الذى اشتهر باسم "اللاحرب واللاسلم" ـ استمر طويلاً لكانت الحركة الشعبية المستقلة حقاً قد بدأت من هنا بالفعل، ولكن "لو" تفتح عمل الشيطان فى فهم التاريخ أيضاً. فمثلاً، من ذا الذى كان سينتظرها تنمو على حسابه فى الوضع المعلق! وبالفعل لم ينتظر السادات، بل كان من شأن الحركة الطلابية فى هذه الملابسات أن عجلت بمسيرته السلمية، وأجهضت تلك البداية. لم تكن هذه الجماهير تعرف لها طريقاً مستقلاً عن النظام، ولا مصالح متميزة عنه، كى تكون لها وجهة نظر مستقلة فيما يحدث، كان مقدراً لها أن تمضى فى الشوط إلى آخره قبل أن تنتبه إلى واقع هذا الانفصال والاستقلال، فلقد كان ما يزال أمام النظام شوط يقطعه، إذ كان **"يستوعب"** بدوره تدريجياً المطلوب منه تحت السيف المسلط للاحتلال (معروف أن السادات الذى ذهب إلى القدس هو الذى رفض من قبل مبادرة روجرز التى قبلها عبد الناصر بينما كان فى رحلة للخارج). شوط يشتمل على حرب ودماء قبل أن يستجمع شجاعته، ويسلم!

كانت الحركة الطلابية فى واقع الأمر تعبيراً عن هذه المرحلة الانتقالية

من عمر نظام عبد الناصر، التى كانت بنفس انتقالية القدر فى حياة الشعب ووعيه الذى كان يستقل فقط بقدر ما ينتقل النظام بالفعل من مواقعه السابقة، وكان انفجار الحركة الطلابية نتيجة شرخ فى جدران بيته، لكنه البيت الذى ما يزال هو سيده بلا منازع، وقد تعاطف الشعب مع الحركة الطلابية لأنها "تضغط" على النظام لا لأنها تعاديه، إذ لم يكن هناك بعد مبرر قوى للعداء، فى نظر هذا الشعب على الأقل.

وليست مصادفة أن الحركة الطلابية بالذات كانت "**بطلة**" تلك المرحلة، وأن باقى الشعب كان يتفرج ببهجة بريئة لا تشبه جو الصراع، حين يكون هذا حقيقياً. فالشعب لم يكن منقسماً إلى طبقات تدرك كل منها مصالحها من قلب الصراع حولها، ومن ثم "**تتعارف**" حقاً من خلال علاقات "**حرة**" فيما بينها، بل كانت هذه العلاقات "**هلامية**" لا يعرف فيها احد أحداً إلا من خلال الممر الحديدى للزعيم ومتحدثيه الرسميين، كان الشعب "**موحداً**" حول قضية وطنية لا يعرف عنها، ولا عن الرأى الحقيقى لمختلف الطبقات فيها إلا ما حدده النظام. فكيف يمكن توقع أن ينشب صراع جدى فى وضع كهذا، بين أى أطراف؟ وحول ماذا؟ والأطراف المتصارعة - أو يفترض أنها كذلك - لا تعرف مواضع الخلاف بينها، بل لا تعرف أن هناك صراعاً فى "الداخل" من الأصل! فكل الخطر من الخارج حسب قول النظام، وناصر إذا قال، مُصدق، فمن الذى يخشى خطره فى الداخل، ألم نقض على الرأسمالية المستغلة وأعوان الاستعمار!

لقد كان طبيعياً أن يأتى الاحتجاج الأول وسط هذه العلاقات الهلامية هلامياً مثلها، لا أعداؤه واضحون ولا كذلك أنصاره. كان الجميع أنصاراً، حتى النظام لم يعترض على "**مواقف**" الحركة الطلابية، فقد كانت مبهمة تريد حرباً تسترد كرامتنا الجريحة والسلام* - كرامة لم تكن قد تمايزت

---

* الإشارة هنا لجمهور الطلاب المتظاهر، وليس إلى ما فى دماغ القادة. وجدير بالذكر هنا حجم "القمع" الذى يعد ملاطفة إذا ما قورن بمواجهة مظاهرات عام ٧٧ الشعبية.

بعد عن كرامة النظام، وذلك هو لب الموضوع، فخلف الرطانة "**الوطنية**" لنظام عود الناس على وضع المتحدث باسمهم وباسم مصالحهم، لم يتبينوا فى معالجته للقضية الوطنية و"**للمعركة**" - التى كان يتضاءل طموحها على مر السنين - المصالح المتميزة لنظام يعنيه الحفاظ على وجوده قبل كل شىء وعدا ذلك يقبل كل شىء المساومة، بما فى ذلك مصالحهم هم، مصالح الوطن. كان الوطن والنظام والشعب كلاً واحداً لا تمايز فيه، لذلك حين نجا النظام بنفسه وسقطت مصالح الوطن، لم يكن قد تسنى الوقت لأحد كى يدرك المسافة التى غدت تفصلهما، وحينئذ بدت نتائج الحرب لغزاً لأن أحداً لم يكن قد عرف بعد أن النظام خاض بها معركة وجوده، لا معركة الوطن! وغطى غبار المعارك بالذات - بل بسالة من خاضوها - على نوع المصالح التى خدمتها، أخفى تمايزها عن مصالح "**الشعب**" الذى كان ما يزال يرى هويته فى "**النظام**"، الذى نجا من العقاب بفضل عمى الألوان هذا، عمى ألوان احترفت "**الثورة البيضاء**" ابتلاءنا به. وهذا باختصار هو سر "**الإجماع**" الوطنى الذى دلل الحركة الطلابية وأفقدها الرشد وزعماءها بالأخص، الذين لعلهم راودت البعض منهم ذكرى ثورة ١٩١٩، وفى ذلك كانوا على بعض الحق، فحين تتسم مواقف "**الشعب**" بالإجماع دون أى تمايز فى صفوفه، تكون تلك علامة لا تكذب على أن الحكم فى هذه الحركة الشعبية مايزال للبرجوازية، فهى الطبقة التى تدعى دائماً التحدث باسم مصالح الشعب كله، حتى حين تخونها.

لقد أجيبت الحركة الطلابية إلى مطلبها، حارب النظام، وأفحمها.. ثم بلّ الحرب وشرب ماءها! (حقاً حدث ذلك!).

فالنظام عندما خاض حرب عام ٧٣، كانت قد تبددت لديه كثير من الأوهام التى بدأ بها عام ٦٧ يعالج "**آثار العدوان**" وفى القلب منها إمكانية "**الحلول الوسط**" مع إسرائيل وأمريكا، فكلاهما لم يكن ليطمئن لهذا النظام - الذى أتعبهما بالفعل من قبل - ومعه ولو نصف استقلال وطنى، ولو

نصف كرامة مع إسرائيل (فالإمبريالية "**متطرفة**" هى الأخرى)، وعلى ذلك لا يكفى الاعتراف بإسرائيل (أى بحقها فى الأراضى التى استولت عليها عام ٤٨، وبدولتها العنصرية)، بل يجب الصلح والعلاقات "**الطبيعية**"، لا يكفى "**التوازن**" فى العلاقات مع الشرق والغرب، بل علاقات "**خاصة**" مع أمريكا. لا تكفى "**المشاركة**" فى سوقنا الوطنى، بل انفتاح على الواسع للاستيلاء الكامل عليه فى "**منافسة حرة**" لسنا نداً فيها، وليست حرة طبعاً بل تقوم على قهر لا تكاد تخفيه غلالة السيادة الوطنية النحيلة.. والشق الأول من هذه الصيغ هو الذى راهن عليه النظام فى بداية الأمر، على أن تقف التنازلات عنده، وأقنع الشعب بهذه الإمكانية (بسهولة طبعاً فلا أحد يتكلم غيره)، ولكن "**الواقع**" كان له رأى مختلف، كان واقعاً متطرفاً لا يقبل الحلول الوسط الناصرية، فقد كان الزمن قد تغير ولم يعد يمكن فى ٦٧ تكرار لعبة ٥٦، فالخصم هذه المرة كان أحد أصحاب الفضل فى المرة السابقة فى وقف الأسد البريطانى العجوز، كان "**فتوة**" العصر الحديث، أمريكا شخصياً. وتعلم النظام الواقعية على مدى سنوات الاحتلال، عرف أن زمن التحديات الكبرى وتغيير الواقع قد انتهى بالنسبة له. غير أنه لم يبلغ الشعب بذلك، وبقى الشعب وحده يقتات أوهاماً لا جدوى منها سوى "إحراج" نظام البرجوازية التى أخفت النبأ، فقد سقطت فى الامتحان.

وهكذا فإن المعضلة التى بدأت بالرغبة (فى ٦٧) فى تقليل التنازلات المقدمة للغرب وإسرائيل ـــ تنازلات لم تعد محل جدل بذاتها ـــ تحولت إلى معضلة كيف يطلق النظام يديه من الشعب، ليقدمها (فى ٧٣) !.

ولا شك أن الزعيم عبد الناصر كان سباقاً ـــ كعادته ـــ فى فهم اتجاه الريح، ولهذا بالذات اختار السادات خلفاً له (كان يعرف طبعاً أن الحل لن يكون معه * أو يكون أكثر إذلالاً من أى رئيس آخر)، كان يعرف أن المطلوب

* هناك إشارة فى كتاب الأستاذ هيكل "خريف الغضب" تفيد هذا المعنى على لسان عبد الناصر الذى قال أن الغرب يريد أن يتعامل مع الرئيس الذى يسلم وأنه لن يكون هذا الرجل، وقد اختار زعيمنا الرئيس الذى سيسلم بنفسه كى لا يدع شيئاً للصدفة! حتى وإن أصر هيكل على تفسير الأمر بالصدفة.

يحتاج رئيساً تتسع كرامته وذمته للكثير، لذلك فقد انطوى اختياره على حكمة جديرة بعبد الناصر، ولكن أيضاً على خبث جدير به، فالسادات الذى فقد عقله فرحاً بأنه أصبح "**الريس**" (حتى بدأ يهزأ بعبد الناصر علناً، بعد مرور سنوات تكفى ليطمئن أنه مات) لبس ـ وحده ـ عار ما حدث كله، ولم تكره مصر حاكماً كما كرهته فى حسبة قرون (عدا أغنياء الانفتاح طبعاً). ورغم أن ملف السادات لم يفتح كله بعد لحساب التاريخ، إلا أن ميتته وحدها تشهد بأن عبد الناصر ـ ميتاً ـ كانت له "**الكلمة** " الأخيرة، والجنازاتان تتحدثان عن نفسيهما. غير أن المتجرع الحقيقى للمقلب كان الشعب، لقد صنع عبد الناصر التاريخ ميتاً تماماً كما صنعه حياً، جعل من نفسه معبوداً بالذات على جثة الشعب الذى عبده، فكى يتقدس اسم الصنم جعل شعباً بأسره مادة لمزحة ثقيلة يلبس فيها عاره لغيره، بعد أن حدد الاتجاه، فذقنا نحن الهوان وبقيت صوره تلمع بالكبرياء. كانت تلك هى آخر سخريات عبد الناصر، وكل ما بقى من أثر لعهد "**الاستقلال الوطنى**" و"**الاشتراكية العربية**"*.

فى ٦٧ كان النظام "ينوى" محاولة الحفاظ على ما أمكن من منجزاته "**القومية**"، وفى ٧٣ كان قد أدرك أن هذا مستحيل، ولكنه كان متورطاً فى سنين طويلة يمتص فيها غضب الشعب ـ ويخرسه ـ "**بالإعداد للمعركة**"، وإذن كان لابد مما ليس منه بد، خاض السادات حرباً محدودة للشعب، وقدم التنازلات بلا حدود للغرب، وأنقذ نظامه من غضب الاثنين. فتسلم الغرب وإسرائيل مطالبهما عندنا، ملفوفة فى دمانا.

وحق للسادات بعدها أن يفسر صراعنا مع إسرائيل بلغة "**علم النفس**"، إذا كان قد أمكن حتى لحرب حقيقية لها كيان مادى من سلاح ومال وبشر،

• لعل هناك من يقول؛ ولكنه لم يكن يعلم أنه سيموت؛ وأرد بأنه كان يحدد الاتجاه ويوجه رسائل ضمنية للحلف الذى "يحاربه"، تماماً كما فعل حين تنحى فى ٦٧ ورشح زكريا محيى الدين بديلاً له فهو ككل المستبدين أقل حديدية بكثير من صورته المزعومة.

أن تتحول إلى مجرد أداة نفسية تمتص سلفاً أثر "صدماته الكهربائية" اللاحقة من تنازلات، فقط لأنه لم يجرؤ على تقديمها مهزوماً! ولقد امتصت الصدمة الأولى نعم، صدمة رحلة القدس التى بزغ فيها إدراك أن شيئاً يحدث فى "**عكس الاتجاه**" المنتظر، ولكن الشعب بأسره غرق فى إحساس بالعبث؛ ولم يفق منه حتى اليوم. لقد كان بوسع السادات أن يعفينا من الحرب، ما دام الصلح والوفاق مع إسرائيل وأمريكا هما هدفه الأصلى منها - وهما لم تطلبا أكثر من ذلك فى ٦٧، مما أعطاه بعد ٧٣ - ولكنه خاف على نظامه، فأسفرت "**حرب التحرير الوطنية**" عن مجزرة. لقد تحولت حرب أكتوبر إلى "**علقة للشعب**"، يتوب من بعدها عن ذكر الوطن وحقوقه التى اتضح أنها يمكن أن تأكل الأبناء دون أن تصون كرامة، فالذى أتانا من الحرب لم يكن حقوقاً مستعادة حقاً - فحتى سيناء التى صرنا لا نملك تحريك جندى فيها دون إذن، تحولت إلى سوط فى ظهورنا يسيّرنا بالأدب لحساب الغرب، فإن لم نطع احتلوا - بل انتهاك لحقوق الوطن والمواطن كليهما لم يسبق له مثيل، ففى الوطن الذين أفلحوا أخيراً فى ترويضه لا غزو اقتصاده وحسب - أصبح الجميع بلاحقوق، إلا البرجوازية، لأن كل شىء فيه أصبح سلعة غالية، حتى أبسط الحقوق، اعتباراً من عام النصر.

لقد حقق النظام "**انتصاره**" المشروط، الذى حذره خصومه (!) من أن المضى فيه خطوة واحدة إلى أبعد سيقلبه إلى هزيمة على رأسه* وهو حرص منهم يشى بحدود الخصومة حتى فى ذروة المعركة، تماماً كاستجابته. غير أن النصر ما إن تحقق حتى استحال إلى تراب. انشطبت القضية الوطنية من الوجود، واعتبرت كل المعارك الوطنية السابقة شططاً وحماقة وجب التكفير عنها، وأعلنت حرب أكتوبر "**آخر الحروب**" (لم يصبر حتى تبرد

---

* بواسطة هنرى كيسنجر فى مكالمة تلفيونية مع السادات.

المدافع كى يفيقنا على واقع أنه حارب إسرائيل وأمريكا بجنود لا ثمن لدمهم، لا لشىء إلا ليصالح أهلهم على القتلة، ولم يشرق بالكلام هذه المرة). وبدأنا عهداً خالياً من "**الهموم الوطنية**"، ولكن فى الفراغ الذى تركته لم يحل "**الانشراح**" الذى اشتهر به السادات، بل تلك الهموم التى ما عادت تحتاج شرحاً، ولكننا فقط نسينا ـ أو تناسينا ـ أن أصلها هو أن القضية الوطنية لم تحل، أننا عدنا ـ مرة أخرى ـ غرباء فى وطننا ـ ولقد جاء على شعبنا الزمن الذى صار فيه حديث "**الوطن**" و "**الوطنية**" يثير عنده الضحك، ومع ذلك تفضحه عاطفته حين تلتف القلوب حول مسلسل جاسوسية ساذج عن صراعنا مع إسرائيل، أو حتى مباراة لكرة القدم تسمح بإزالة الصدأ الذى علا حب الوطن.

ولديهم من البجاحة الآن، بعد أن جعلوا الذل "**واقعاً**" أن يفلسفوه فيعلنوا الندم: كان يجب أن نسلم منذ عام ١٤٨ "**قدها وقدود**" فلقد فعلتموها حين جرؤتم، بدماء غيركم.. ولا يزال شعبنا يلعب لعبة نسيان مع نفسه، ولكن سيجىء وقت ويتذكر، فللشعوب أيضاً ذاكرة*.

كانت الحركة الطلابية احتجاجاً هلامياً، بقدر ما كانت تواجه واقعاً غير واضح المعالم (وبنفس القدر الذى بدت به "**القضية**" آنذاك بسيطة واضحة، تلخصها صيحة "**الحرب.. الحرب!**")، ولكنها أيضاً جاءت من طبقة هلامية لا استقلال لها، تلائم هذا الدور وهذا الوضع، هى البرجوازية الصغيرة (الطلابية)، تلك التى كانت تنتمى بوجدانها وبكثير من مميزاتها (فى ذلك الحين) لنظام عبد الناصر، وعلى رأسها مجانية التعليم، فهل كان ينتظر منها أكثر من أن تلعب على حجره! ومع ذلك فقد كانت فى هذا بالذات تمثل لحظة فى تطور وعى شعبنا الذى حبسه عبد الناصر فى طوق الأطفال مسلوبى الإرادة.

---

* يروج طبيب نفسى شهير "مصرى" لقول السادات ان صراعنا مع إسرائيل أصله "نفسى"!.. صحيح ، مصائب قوم...

٦ـ النهاية

لقد احتج الطلاب، والشعب، على وعود البرجوازية التى لم تف بها، وليس لأن لهم رأياً آخر. وحين انقلبت على القضية المشتركة فعلاً وأصبح الخطر حقيقة، لم يتصاعد الاحتجاج، بل فقد الجميع النطق! ذلك أن أقصى ضرر كان يتسع خيالهم لتصوره، هو أن يلحق الأعداء الخارجيون سوءاً "بالنظام"، فعلى هذا النحو صورت البرجوازية القضية الوطنية دائماً، وعلى هذا النحو تحدد دور الشعب "بحمايته" ("معنوياً" فقط طبعاً، ففكرة أن يتيح عبد الناصر مشاركة حقيقية للشعب ــ سياسياً وعسكرياً ــ نكتة، لقد تعلم جيداً درس الثورات البرجوازية التى فتح فيها الباب للطبقات الشعبية ثم سقطت قبل طلوع النهار، مثلما تعلمت البرجوازية الدرس فى كل مكان. لم تكن ديكتاتوريته "نقيصة" كما يتصور أنصاره، بل كان يعرف إلى من ينتمى وأى جانب يختار حين يجب الخيار، وهو ما كان يجهله "شعبه" عن النسخة الأصلية "لوب العائلة" الذى يذكر بكلمة شهيرة عن التاريخ الذى إذا التقى من يكرر أحداثه ــ بعد أن يكون الزمان قد صار غير الزمان ــ تحول من المأساة إلى المسخرة!) وكان الشعب فى ذلك بريئاً كطفل، فلم يكن النظام هو من تعوزه الحماية فى تلك اللحظة.

كان التغيير أعمق من أن يدرك لأول وهلة، انعطافاً بحق، فالذى سلم مقادير الوطن، ليس حفنة من المنبوذين أو الموتورين فيه، بل طبقة بأسرها، كانت حتى الأمس القريب تقود هذا الوطن كله فى معركة صون الاستقلال الوطنى، بل تحتكر هذه القيادة، وتدعى الفضل الوحيد فيه، كذباً، لأن هذه الطبقة التى جعلت من الشيوعيين المصريين فئراناً فى وطنهم، كانت تستفيد من وجودهم فى السلطة فى مكان آخر (أو من يعتبرون انفسهم كذلك) على رأس المعسكر الاشتراكى، الذى لولاه لما احتاجت غلوه واحدة من المعسكر الاستعمارى وإلا فعلى من تعتمد إذا كان الشعب مكمماً والاستعمار لا يرحل بالتعاويذ. على الجيش الذى ورثته عن عهد الاحتلال؟)، وفى كل منجز من

المنجزات التى قدمتها باعتبارها عينات من كرمها مع الشعب تتطق سواعد عمال الدول الاشتراكية، وفائض جهدهم الذى لا يفيض لترف لهم، ذلك الذى أعاد ـ مثلاً ـ بناء جيشها مجاناً، لترقأ به كرامتها المثلومة كى تصلح للمساومة، على كرامتنا وخبز يومنا.

لقد أتت الضربة من حيث لم يتوقع الشعب، فلم يفهم؛ وجاءت فى شكلها ومضمونها غريبة عن ذلك الذى علموه سنين طويلة ـ بطريقة التكرار ـ أن يتوقعه، فلم يصب النظام بسوء ولم يضربه أحد على يده كى يذهب إلى القدس ضيفاً، بل كان فى عز الانتصار! (حتى إسرائيل لم تخل من شك فحضرت القناصة على أسطح المطار) ولكنه كان منطلقاً "**بقوة دفع**"* سبع سنوات من الاحتلال علموه الأدب ـ فقد فرجته الحركة الطلابية عيّنه من الخطر القادم الذى هان بجانبه خطر إسرائيل ـ وليس الصواريخ النارية فى فرح العمدة الذى أقامه للشعب يلهو به ولم يقعده، حتى أفطسنا بأغانيه "**الوطنية**" المملة، وهو حقها "**فالجنازة حاره والميت....**" ثم ما دخل القضية الوطنية التى نزل عليها التخفيض فصارت "**استرداد سيناء**" بعد أن كانت ذات يوم مناطحة أمريكا رأساً ـ وليس حتى "**صبيتها**" إسرائيل التى أشبعنا الزعيم سخرية منها ـ فى سبيل الدفاع عن "**استقلال وطنى حقيقى وبناء اقتصاد وطنى قوى**"، وتلك عباراتهم نصاً، ما دخل هذه القضية الوطنية "**السيناثية**" بالزلزال الذى قلب "**الجبهة الداخلية**" سافلها عاليها، وعاليها سافلها!

لقد أصبح "**الحفاظ على النظام**" الذى يريد الاستعمار به شراً، يعادل استعادة سيناء فقط، وبأى ثمن حتى ولو كان بيع الاقتصاد الوطنى المستقل، فاستعيدت سيناء وخرج النظام من الأزمة مصوناً من كل شر، ورحل الاقتصاد الوطنى المستقل رخيصاً، "**فداء**"!

---

* وصف السادات الدقيق جداً لحرب اكتوبر.

بذلك فقد "**الحفاظ على النظام**" مبرره كهدف قومى لا صوت يعلو فوق صوته، غير أن هذا الجزء هو الذى سقط من كل القُصّاص، بما فى ذلك المعترضين على طريقة السادات فى المساومة، مع انها لا بأس بها فقد قصرت الطرق على الجميع واولهم طبقته طبعاً. والسادات أصوب وأصدق وأكثر عملية حين يقول أن التفاصيل لا أهمية جوهرية لها، ومادام لا خلاف ــ بين أبناء الطبقة ومفكريها ــ على مبدأى الصلح مع إسرائيل وفتح سوقنا الوطنى أمام الرأسمالية العالمية الغازية، وهما أصل المعممة كلها وكلاهما ضامن للآخر، فسواء تخطى الممرات أو وقف عندها، ذهب للقدس أم قابلهم فى جنيف، الصلح والانفتاح هما المصير الذى كان فى انتظارنا فى أى الأحوال، لأنه الذى يعد لنا منذ ٦٧، وحرب ٧٣ لم تأت لتغير هذا الذى يعد من ٦٧، بل لتحوله لأول مرة إلى واقع، فذلك هو ما أسفرت عنه، ومن الاستهانة بعقولنا أن يقال لنا أن هذا حدث لغباء المتفاوضين أو سوء تصرفهم، وهو على الأصح استعباط أناس يفتقرون لرباطة جاش السادات ليتحملوا نتائج الاتجاه الذى حفروا له المجرى طويلاً ــ لأنه لا بديل واحد عنه أمام البرجوازية ــ فلما خرج عليهم كابوساً أخذتهم "**الخضة**"! لقد كان صنع هذا التاريخ يحتاج من الانسحاق الإنسانى، من الدناءة، ما لا تتحمله أعصاب مثقفين اعتادوا شغل "**الدعاة**" الذين يفقدون ظلهم ما إن يموت القائد والمعلم. لقد خدم السادات طبقته على أفضل نحو ممكن فى ضوء الخيارات "**المعدومة**" أمامها، فهو بالفعل المعبر الأمثل عن البرجوازية ومصالحها فى زمن انحطاطها، تماماً كما كان عبد الناصر زعيمها الأمثل فى زمن صعود نجمها، ومن يريد أن يلوى ذراع هذا ليتصرف بطريقة ذاك فى زمن مختلف، هو وحده الواهم بشأن "**الواقع**" الجديد للبرجوازية "**الوطنية**" المصرية، "**محلق**" كما كان يحلو لكتاب البرجوازية وصف الماركسيين المصريين (بتسامح الأقوياء) فى الأيام الخالية الحلوة التى لن تعود، غير أنه تحليق "للوراء"، يغنى مع الشاعر: الا ليت الشباب يعود يوماً! لذلك تجده الآن مشغولاً "**بالتقليب فى أوراقه القديمة**".

ومادام لا خلاف ـ بين أبناء الطبقة ومفكريها ـ على أن باقى طبقات الشعب التى لم تجرب بعد عضلاتها فى تغيير المعادلة إلا كوقود لحرب لا تعرف أهدافها الحقيقية التى لا تخصها فى الواقع ـ لا مساومة على إعطائها الفرصة لتكون طرفاً فى الأحداث، مادام كل ذلك كذلك، فالباقى تفاصيل فعلاً وفكة، لا تستحق بطولات الاعتراض التى لا طائل من ورائها، لأنها لا تجدى فى تغيير واقع الحال إذ تجرى تعديلات بأثر رجعى فى فسيفساء خريطة تسوية لم تعد لازمة لأحد، فالذين خططوا لها انتهوا منها بتحولها إلى واقع هم مشغولون الآن بحراسته، أما باقى **"الجمهور"** فإنه لا يعنى هذا النوع من المعترضين إلا كمتفرج يصفق، هو عنده من جنس البشر الذى يقال فيه **"مفعول به"**، ذلك هو مكانه الملائم لمقامه عنده (فهو نوع يحترم المقامات أكثر مما يزعم بكثير)، ولذلك فلا رجاء منه فى تنقيح الخرائط، التى لها فن وإدارة لا يفهم فيهما سوى الواصلين من أمثال صاحبنا (اللهم قنا المزيد من فنونهم).

كما أنها (الاعتراضات) لن تبيض وجوهاً أقلامها صنعت على مر التاريخ بتبرير كل الجرائم، نجوميتها. لقد جاء يوم لأولئك الذين طالما تسلوا بالفرجة على المعارضين يلعبون على هامش الأحداث، كى يشربوا من نفس الكاس (فليتهم ما بصقوا فيه)، فيستمدوا شرفهم الوحيد من معارضة مسلولة لا تغنى ولا تسمن من جوع. أما الماضى **"المشرف"** فسيكون حسابه عسيراً فى مستقبل افضل من هذا الذى نعيشه، هذا إن تذكرته أجيال سيكون عندها أشياء أجدى وأكثر بهجة تعملها، لقد انقضى عهد **"وطنية"** أمثال هؤلاء من كل صنف، يوم توقف الزمن الذى كانت فيه مصالح الوطن تسدد فاتورتها على حساب الصراع بين الشرق والغرب فى الحرب الباردة، فلا تكلف "حماتها" هؤلاء سوى اللعب على أوتار هذا الصراع، لعباً غير نظيف تجاه كل الأطراف، وفى مقدمتها الشعب الذى كانوا يلعبون باسمه، مضى الزمن الذى كان يمكنهم فيه اللعب على كل الأطراف وسرقة المكاسب منها كلها، بما فى ذلك هالة الوطنية والشرف "بلّوشى"، فقط "بفن" إدارة

الأزمات، فقد ولجنا زمناً سيكون لاسترداد كرامة الوطن ومواطنيه فيه ثمن لا ينفع معه الجمع بين الدنيا والدين، ولعلها الميزة الحقيقية للأسود على "البمبى"!

٧ـ زمن النهاية . لم ينته!

هل كان يمكن إذن أن يصمد "**الطلبة**" لنقلة بهذا الحجم! لقد كانوا أمام طبقة تأخذ مجتمعاً بأسره وتهوى، بكل الثقل الذى اكتسبته فى تاريخ طويل من الانفراد بالسلطة وحق الكلام والفعل والتفكير . كان لا بد وأن يهوى المجتمع بأسره معها لأنه لم تكن له أقدام مستقلة تحمى توازنه أثناء سقوطها هى، فدفع ثانية ثمن اعتدائها على حرياته وقت صعودها، وأول ما دفع كان "**مكرماتها**" الشهيرة فى أعياد الثورة، تعليماً وصحة وكرامة والطلبة مشغولون الآن بالبحث عن عمل.

لم يكن الطلاب ليحتلوا صدارة الحياة السياسية فى لحظة إلا لأن هذه اللحظة انتقالية، بل ومؤقتة، لأننا لم نكن قد انقسمنا بعد إلى قتلة ومقتولين ـ هذه الانقسامات التى تفوقت على نفسها الآن فطالت أقليات الأمة الدينية تشعرها بالغربة فى الوطن ـ أما بعد أن مضت بنا البرجوازية إلى آخر طريقها المسدود، بعد أن دخلنا على يديها حقبة مظلمة من تاريخنا، فقد دخل الصراع مرحلة جديدة تماماً، أكثر ضراوة بكثير من تلك التى أمكن أن يتصدرها الطلاب فى زمن انتهى إلى الأبد، ولا يعلم إلا الله كيف سنخرج منها! فلقد تغيرت القوانين التى كانت تنشب بها الثورات حتى مطلع القرن، وتغيرت ملامح الطبقات فى المجتمع وأوزانها النسبية فيه، ويبدو النظام الرأسمالى العالمى وكأنه تعلم من دروس الثورات أفضل من الجميع، وأصبح بإمكانياته الهائلة الخالق الأوحد تقريباً للواقع الراهن المظلم، الاستثناء الوحيد الثابت حالياً، صنعته شعوب الدول "**الاشتراكية**"، ولا نعرف بعد ما إذا كانت ستعرف كيف تخطو خطوة أخرى فى صنع تاريخها بنفسها، هل

سيتركونها هذه المرة أيضاً؟، هل ستقدر؟* ولكن كيف سيتخلخل هذا الوضع الخانق حتى نجرؤ نحن على التنفس، هذا هو ما لا تلوح له أية مقدمات واضحة حتى الآن، وحين تكون هناك فلن تبقى سراً، غير أن الأمر المؤكد هو أننا ما لم نسع لتحرير وطننا من القبضة الاستعمارية الجديدة، فلن نتحرر فيه أبداً.

على هذه الأرضية اختلف وجه طلاب اليوم عن طلاب الأمس، اختلافاً ينبئ عما يحدث داخل أسوار الجامعة، لقد انقسموا انقساماً عميقاً بين الفقر والغنى، ولا يجمعهم من قاسم مشترك سوى الإحساس العميق بالضياع الذى يلف الأمة، الأغنياء منهم "**يشمون**" ويغرقون الدنيا صخباً بأغانى بلون زمنهم، لا طعم لها، لعل الصخب يملأ مساحة الفراغ الذى يحتلهم. والفقراء احتموا بالدين يطلبون منه تماسكاً لداخل تسحقه الضغوط وعدم الأمان. والنشطون من هؤلاء لا يشبهون قادة السبعينيات المرحين الصاخبين، وإنما هم أناس تعلو وجوههم جهامة قاسية، ويسبقهم الإعلان المبالغ فيه عن الهوية بلحية طويلة غير مشذبة، ويحملون ـ بدلاً من مجلات الحائط ـ سكاكين وجنازير، يردون بها إهانة مجتمع يتجاهل معاناتهم، بعنف جديد علينا، قديم فى كل تجارب الشعوب التى سبقتنا إلى الأزمات الاقتصادية الضارية، ويسمونه "**الفاشية**". لقد تحولت قطاعات لا يستهان بها من أبناء البرجوازية الصغيرة، التى كانت دائماً مدداً للحركة الوطنية والديمقراطية المصرية (إلا أقلية) خلال ما يقل عن عقدين، إلى خطر داهم منذر، فهى لا تعرف تنفيساً عن القهر الذى يفسدها إفساداً، إلا بممارسة القهر على الآخرين، وهى لا تستطيع أن تغير ما نحن فيه، فقط ستعطيه صبغة فاشية إذا وصلت للسلطة، لا قدر الله.

لقد كان قدر الحركة الطلابية أن تأتى فى نهاية حقبة لتودع بمرح

* يبدو المشهد العالمى وقد أغرقته شرائح الطبقة المتوسطة، توسعها حفنة المالكين وتشكل أفكارها ونمط حياتها وحتى أحلامها، وتقنعها بأنها حقاً تحكم، وفى الدول "الاشتراكية" جاءت شبيهة بمن حكموها تحلم "بالجينز" وأجهزة الكاسيت وتحتقر "الفقراء".

الطلاب ماضياً حميماً قبل أن يلفظ انفاسه وتستقبل حقبة ثقيلة، وداعاً يناسب مقامه فى التاريخ، فيفوتها شرف تدشين المسيرة المستقلة حقاً لشعبنا، أو لعله لم يكن مكتوباً لها فى أى وقت.!

٨ ـ خاتمة الحكايتين فى الخندق الواحد

حين حزمت الطبقة أمرها إذن فى نهاية المطاف ـ مستعينة "بقوة دفع" الحرب بالذات ـ وغيرت المسار الاشتراكى والوطنى وخلافه، لم تكن فى الميدان قوة أو ما يشبهها لتعترض، تبخرت الحركة الطلابية واحتمالات البداية بها، ووجد زعماؤها أنفسهم فى العراء! ليذوقوا نفس المهانة التى طالما جرعوها جيل الستينيات، لقد أصبحوا هم أيضاً، زعماء بلا جمهور. وعرفنا ما هو طعم الترهل واليأس، وحتى "الخيانة" للفكر الماركسى إلى أعفن ما خرج من معطف البرجوازية فى زمن انحطاطها. دهمتنا نحن أيضاً عجلة الانتقال من زمن إلى زمن، كنا نظنه زمننا وأننا سنغيره، ولكننا لم نتبين مواقع أقدامنا بما فيه الكفاية، فقد اتضح ـ مرة أخرى ـ أن زمن قادة الشعب الحقيقيين لم يحن بعد، لقد كان الشعب أعزل فى كلتا الحالتين، فكيف لا يكون هذا هو مصير مثقفيه ومناضليه، والأبطال لا يظهرون فى غيبة الملاحم.

وللحكاية بقية....

الفصل الثاني

مصائر جيل الحركة الطلابية

"عجبتنى كلمة من كلام الورق

النور شرق من بين حروفها وبرق

حبيت أشيلها ف قلبى... قالت حرام

ده انا كل قلب دخلت فيه اتحرق"

عجبى !

"صلاح جاهين"

١ ـ ذيول للحكاية بين جيلين :

انخرط الموهوبون من اليساريين فى زمن عبد الناصر فى حركة أدبية مُسيّجة حدد إطارها النظام، فأرغمهم على حديث الرمز والإشارة، وترك فيهم إحساساً لايمحى بالقهر، وبإثم ليس له دائماً مبرر شخصى. أما أنصاف الموهوبين، فقد جلسوا على المقاهى متفرغين، يمضغون مرارة الهزيمة ويشبعون الموهوبين لوماً، إلى أن منّ الله عليهم بالحركة الطلابية.

كان هؤلاء "المثقفون الثوريون" يعاملون أنفسهم منذ الآن كطليعة للطبقة العاملة المصرية، بل وللشعب المصرى، ولكنها طليعة منبوذة من جماهيرها التى كانت فى وادٍ آخر تعيش نصراً وراء نصر خلف الزعيم ناصر، وتنظر إليهم ـ حين تقع أنظارها عليهم ـ باعتبارهم نوعاً من الحيوانات النادرة، كان العجز عن الفعالية، بل عن أى تفاعل مع واقع طارد لهم، يفسخهم أحياء بينما "الأفكار الراديكالية" تهوم فى الراس وعلى أرفف المكتبة دون أن تجد طريقاً للتحقق فى واقع صاحبها، لتصنع اتساقاً مع مبادئه من أى نوع، فتكتفى "بتلصيم" صورة نضالية لحسابه الخاص شهادتها المواقف ومرات السجن، ولكن المناضل نفسه لم يخض نضالاً أبداً. ومع ذلك فقد كان لقب مناضل اقل من أن يرضى ذواتاً ضخم منها العجز بالذات، فلا اقل من الزعامة يرد الاعتبار للكبرياء المهانة "المثقف" فجيعته فى مأساته أبعد كثيراً منها فى مأساة شعبه.

قدمت الحركة الطلابية إذن حلاً لمشكلة وجود طال شعوره بأنه زائد عن الحاجة، ولعلها كان يمكن أن تقدم فرصة ـ ولو صغيرة ـ للإنقاذ، ولكنهم حين استقبلوها كانوا قد قطعوا شوطاً طويلاً من العمر، لا نضال فيه، بل حياة هى الازدواج حياً بين افكار ماركسية صاغها مؤسسوها فى زمن مد

ثورى عالمى يملأ لغتها قوة وتفاؤل المستقبل الزاحف بلا راد (ثم جاءت السلطة السوفييتية لتحول هذا التفاؤل إلى دين لا يجوز خرقه مهما كان الواقع مأساوياً)، وبين واقع هزيمة لم يتح لأصحابها حتى شرف النزال، فهى اقرب للانتهاك من أى شىء آخر. فالنظام الذى أخذ الشعب أسيراً مقابل تلك المكاسب التى اتضح أنها مؤقتة، وضع هؤلاء المثقفين الثوريين فى مفارقة ساخرة حين جعلهم أقلية مضطهدة من الشعب ذاته، فقط بالإهمال فأجبرهم إما على التعاون معه أو الضمور فى زوايا النسيان حيث لا تساوى أفكارهم أكثر كثيراً من قدرتهم على الفعل. والوجه المأساوى لهذا الوضع لا يقف عند حد العجز عن النضال فحسب، بل ويتحدد نصل قسوته فى الاغتراب عن وجدان شعب بأسره، ملتف حول العدو، لا تخامره مجرد الرغبة فى تحرير نفسه! وفى ذلك يصنع الإصرار على **"التفاؤل الثورى"** فى كتابات بعضهم نفس الازدواجية التى حكمت حياتهم، وهوة واضحة فى الرؤية، فهى نقدية وأحياناً موهوبة حين يتعلق الأمر بالبرجوازية ونقدها، ولكنها غير ذلك حين يتعلق الأمر بالنماذج العزيزة عليها والمجهولة مع ذلك فى واقع تجمدت فيه الحركة الشعبية، وعلى رأسها **"المثقف الثورى"** ذاته، حينئذ تتضح السطور بالافتعال، لأن التفاؤل ببساطة مزيف. فهو تفاؤل مضبوط على ما جاء فى الكتب، ويتجاهل بإباء وشمم التجربة المأساوية التى صاغها وجداناً واقعه الحقيقى هو الاغتراب، الذى زحف إلى عمق علاقاتهم الإنسانية والشخصية ليحتلها بأسوأ أمراض البرجوازية وأخلاقها أيضاً، "أسوأ" لأن البرجوازية نفسها لم تكن فى وضع تحلل حينئذ، بينما كان وضعهم ينطوى على هذا العنصر. لذلك فإن الوجه **"الإيجابى"** من الأفكار والرؤى الثورية (فى الأدب خاصة)، إذ يقفز على واقع حركتهم بل والواقع الذى آلت إليه الاشتراكية العالمية وعلى رأسها البلد الذى تحقق فيه "الحلم" يستمد التفاؤل من أقانيم جاهزة مشكوك فى أصولها الواقعية مهما تلفعت بالحذق والشطارة اللغوية وغير اللغوية، فهو ليس تفاؤل (أو تشاؤم) من يكتشف طريقه الخاص للأفكار التى يؤمن بها - فى زمان ومكان مختلف -

بل من يحتمى بإطلاقية نظرة الجمود العقائدى الثابتة للنموذج، من "الكفـر" بأفكار باتت العمود الفقرى لتماسك أعوج، عاجز عن إيجاد أى جسر حقيقى بينها وبين واقعه لتكتمل السخرية، "**فالإيمان**" يقدم للبرجوازى الصغير بديلاً يلائمه عن علاقة جسوره بالواقع، لا تضمن دائماً مكافأة على تمرده.

كان الزمن بالنسبة لهم ساكناً خامداً لا يتحرك، بينما يمور بالحيوية عند الشعب المفعم بالأمل والثقة، وكأنهم كانوا يرقبونه من وراء زجاج آنية، حفظوا فيها! غير أنهم لم يكن فى حياتهم ما يصونهم فعلاً من آثار الزمن الذى كان يمضى غير آبه على جثتهم، ونمت فى هذا الوضع طحالب سامة كثيرة، لم يتبين إلى أى حد أكل خبيثها الطيب فيهم، إلى أن امتلكوا بالفعل جمهوراً، بل مصائر بشر يؤثرون فيها.

حين انفجرت الحركة الطلابية فى مشهد لم تعهده مصر منذ عقود من الهيمنة الناصرية، استبشر القادة العاطلون عن العمل، فقد ظنوها تدشيناً "**لمرحلة النضال الاشتراكى**" بعد أن أخذ الشعب يستفيق من حلم البرجوازية، "**أول الغيث**" فحسب، وقد جاء إذن "**عصرهم**" الذى سيصولون فيه ويجولون بعد طول قعود فى المقاهى. ولكن البرجوازية كانت تدخر لهم سخرية أخيرة قبل أن تسحبهم معها إلى القبر الذى سيضم كل رفات عهد بكامله، بعد أن وضعوا رهانهم الأخير على اليتيمة الحركة الطلابية. فلمرة أخيرة، وهى تلفظ انفاسها بجد هذه المرة، سحبت البرجوازية البساط من تحت أقدامهم، ثانى! ومتى؟ فى عز الحلم المجهض طويلاً بأن يصيروا قوة فى الواقع، ذلك الذى رفض الاستجابة لأفكارهم الثورية النيرة، قاضياً بالعدم ـ بجد هذه المرة أيضاً ـ مصيراً روحياً لأولئك الذين طالما عايروا الدنيا بتفاؤلهم الثورى. فمن بعد حرب أكتوبر والتحول التاريخى الجدى الذى أعقبها، انقطع الغيث ـ صانعاً لغزاً غير مفهوم فى ضوء حقبة النضال الاشتراكى الذى بدأ لتوه ـ فلم يقع نضال له اثر ومغزى عام ليقودوه. أما الحركة الطلابية فقد رشت

رشة من القادة الصغار ومضت دون أن تخلد أثراً سواهم وقد استولت عليهم الحيرة، إذ صاروا على غير توقع بقايا من زمن لم تصقلهم فيه تجربة، فى زمن لا يكادون يتعرفون عليه، لا يدرون ماذا يفعلون بأنفسهم بعد أن ذهبت من تحت أقدامهم الأرض المتحركة للطلاب. ولكنهم وجدوا من يشغلهم، ففى انتظار "بقية الغيث" راح زعماؤنا الذين ألفوا الحركة فى الفراغ، يلاعبونهم لعبة "طليعة" على الطريقة الستالينية، فهى تتيح تعويضاً وأى تعويض، عن ماض لا نضال فيه، فقط قهر، وانتهاك.

جلبت الحركة الطلابية جمهرة من اليساريين البرجوازيين الصغار فكانوا الجمهور المناسب للقادة المناسبين، فقد كان الأسود من نفس "الشبلة". وجد زعماؤنا ضالتهم أخيراً فى مجموعة من الأطفال لم تتعلم النطق بعد، ومع ذلك تعتقد هى الأخرى أنها زعيمة الشعب المصرى ـ وكيف لا والجماهير فى الشارع بالألوف تقول وراءهم وتهتف! كان قادة الحركة الطلابية شباباً فى أوائل عشريناته، يتلعثم بعضه بكلمات ماركسية، وملأته "قيادة الجماهير" غروراً ساذجاً سرعان ما دفع ثمنه غالياً، فقد صنع التقاؤه بالقادة الماركسيين القادمين من زمن عبد الناصر ـ منتهكين منه ـ مهزلة لو رويت كل فصولها لانفجرت جنوب السامعين من الضحك ومن النفور، ولكنها تركت فى ضحاياها شعوراً بالخزى والمرارة، قضى على كثيرين حتى لم يعودوا يصلحون لشىء.*

قبل أن ينقسم الشعب المصرى نفسه إلى طبقات متناحرة، انقسم جيل الحركة الطلابية فرقاً وشيعاً: أقصى اليسار، ويمين اليسار، وما بينهما، تتبادل الاتهامات وكراهية ليس بين أطرافها من داع حقيقى، لأنها انقسامات لا تعبر عن واقع خارجها، عن اختيارات متعددة مطروحة فى صفوف الشعب المصرى، فقد كان هذا موحداً حول مطلب استرداد الكرامة الوطنية، كانت

* لكل جيل استثناءات بالطبع وهى معروفة للجميع وتفرض احترامها.

انقسامات لا تعكس خلافاً حول مواجهة هذا الوضع بقدر ما هى امتداد لخلافات مكانها الحقيقى كان معتقلات عبدالناصر، حيث اختلف الشيوعيون حول الموقف منه، وحول أشياء أخرى كثيرة ليست كلها جديرة بالاحترام، فهى وليدة عالم مغلق ليساريين محاصرين فى ظروف هزيمة، فأرضعونا اللبن المسموم دون أن يتركونا لتجربتنا وللواقع الحى يفرز بالتجربة اليمين من اليسار، وسبق التقسيم نمو الحركة التى كانت فى مهدها، ورثته جاهزاً من قبل أن يقول أى واقع كلمته، لأن أناساً اتخذوا من حفنة من البشر مادة لتصفية حسابات قديمة، فقط لأنهم كانت لديهم وقاحة كافية ليعتبروهم إرثاً يتنازعوه؛ "**صبية**" للمعلمين الجاهزين الآتين من زمن لم يعرفوا فيه كيف يكونوا رجالاً.

ولا غرابة إن اتسمت مواقف جميع اتجاهات هذه الحركة بالجمود العقائدى، من "**أقصى اليسار**" "**لأقصى اليمين**"، فحركة جيل الستينيات لم تكن لها أرض شعبية تجعلها قوة مؤثرة فى الواقع وتضع أقوالها على المحك (الذى حل محله الاستشهاد الشهير "**بالنصوص**" وهو إحدى العادات السيئة التى تعلمناها منهم)، ثم وهو أضعف الإيمان، تجعلها تعمل شيئاً آخر فى الحياة غير النقاش! وقد ورث جيلنا عنهم تلك القدرة المقيتة على النقاش بلا نهاية لأناس لا ثمن للوقت عندهم، إنه عندنا بديل حقيقى عن العمل المنتج، بل أكثر من ذلك، بديل عن التواصل الإنسانى المفقود مع الآخرين، فقط لفرط انتفاخ الذات.

وفضلاً عن ذلك، كان ماركسيو الستينيات ـ على غرار الحركة الشيوعية العالمية حينئذ ـ أبناء عصر الحرب الباردة والأبوة الروحية للاشتراكية الستالينية التى أفلحت فى تحويل الماركسية إلى دين رسمى وفى مجال الفكر ـ بين أشياء أخرى كثيرة ـ تتخذ "**الحقيقة**" وجهاً واحداً مطلقاً، وهذا الواحد المطلق له متحدث باسمه، واحد مطلق أيضاً هو طبعاً ممثل السلطة الرسمية، وهرم كامل مراتبى تتناقص فيه مصداقية، بل حق التصور

عن الحقيقة مع النزول "للقاعدة"! لقد كان الشيوعيون فى بلاد ذات تراث نضالى عمالى عريق وتقاليد ديمقراطية عريقة (فى دول أوربا الغربية مثلاً) قد تقولبوا على هذا النمط، على شكل النموذج الأم فى موسكو، فما بالك ببلادنا التى لم تعرف حركة عمالية قوية مستقلة بوعيها الطبقى جديرة بهذا الاسم.

كان ماركسيو الستينيات "**ستالينيو الوجدان**"، بما فيهم أولئك الذين اعتبروا أنفسهم على يسار "**المراجعة السوفييتية**" (حتى لفظ الاعتراض دينى، تماماً بقدر ما يفتقر للجراة) وذلك لأن التجربة الوحيدة "**الناجحة**"، بمعنى تملّك "**سلطة**"، سارت على ذلك الدرب الذى له ملامح فاشية لا تخطئها العين المجردة. ولم يجرؤ حتى أقصى يسارهم هذا على الشك فى أن شيئاً فى صلب هذه التجربة الاشتراكية مضروب، بل العجيب انهم لم يوجع قلبهم القلق على مصير اشتراكيات لم تعرف ديمقراطية عمالية واحدة إلا وهذا المسار يطال بالتفسخ سلطتها، حينئذ فقط ارتفع صوتهم يقول "**الاشتراكية فى خطر**". وأولئك الذين ابتذلوا من قبل "**الضرورة التاريخية**" لتصلح ذريعة لكل جرائم ستالين، نسوها فجاة وهم يحمّلون رجلاً واحداً مسئولية التآكل الذى يهدد نظاماً بعد سبعين سنة من الاشتراكية (اصبح موضوع الموسم هو هل أنت مع جورباتشوف أم ضده؟!) إنهم باختصار غير قادرين على التفكير فى تاريخ الاشتراكية أو مصيرها دون إلحاقه فعلياً بالسلطة، برغم تقديس "**نمـــوذج**" الشعب المطلق والمراثى فى أدبياتهم السياسية، وهو خيال كئيب "**لمتفائلين ثوريين**" لأن مثل هذه الاشتراكية غير العمالية بتاتاً كما بات ثابتاً، وغير الملهمة بتاتاً كما بات ثابتاً أيضاً، تستحق فعلاً أن تغور من وجوه ليس هناك أى شك فى انها تشبههم، فطريقة "الحكم" واحدة، وكذلك إساءة الاستعمال. لو كانت عيونهم على الشعوب حقاً لعرفوا على الأقل بعض التعاطف معها، بدلاً من السرور الشامت بالمآسى التى أضيفت إليها مع الزحف الراسمالى الغربى، علّها تؤدبها لتعيدها لحظيرة الاشتراكية الوحيدة التى عرفها خيالهم. ولكن موقف البرجوازى

الصغير من السلطة ليس فكرة تدحض ـ فكلهم حافظون "التعاليم" صم ـ بل عاطفة.

ولقد كان وجود السلطة السوفييتية هو المصدر الوحيد المتبقى ليقين كان يستمد ذات يوم من مد ثورى عمالى ضخم فى الغرب الرأسمالى، حين تراجع هذا المد وهبطت زهوة أول ثورة اشتراكية منتصرة تحت الستار الحديدى، لتحتل الصدارة على مسرح الأحداث العالمى حركات التحرر الوطنى البرجوازية فى العالم الثالث، التى كانت نجاحاتها فى كل مكان على جثة الحركات الشيوعية بالذات. وكان موقف الشيوعيين المصريين من السلطة السوفييتية فى ظل ما فعلته فيهم سلطة عبد الناصر يشبه تلك **"الصلعاء التى تتباهى بشعر بنت أختها"**، يتواطؤون على أخطائها فى حق شعوبها التى توصف أنها **"دعاية غربية مغرضة"**، ولا تقلقهم على مصير الاشتراكية مادامت تطبق على السلطة بيد من حديد كما يعرفون جيداً وحين بلغ نخر السوس فى الكيان الذى قام واستمر بتضحيات هائلة نقطة الشرخ، لم يجدوا فى جيوب منهجهم الماركسى سوى إدانة جورباتشوف.

تلك هى عاطفة يسار الستينيات و **"ريبيبيه"** من جيلنا، من أقصى اليسار لأقصى اليمين*، فرب ستالينية خير من ألف منهج فى توحيد المواقف. لذلك فمن المفارقات غير المدهشة أن عدداً لا بأس به من أبناء جيلنا يعيد النظر فى الماركسية برمتها الآن، بمناسبة فقدانها السلطة، ولا تدرى إن كان سقط عندهم نقدها للمجتمع الرأسمالى (أو وجدوا نظرية أقدر على نقده)، أم أنهم عدوا نبوءتها بمجتمع لا طبقى زائفة، لأن المحاولة الأكثر طموحاً فى التاريخ لصنع مجتمع جديد بالبشر قد فشلت. أياً كان الأمر فقد تحررت هذه النظرية من المؤمنين، ولعلها بذلك تستعيد إمكانية الحياة لأول مرة منذ عقود.

---

* يستثنى طبعاً اليسار "البيروقراطى" المتعود على علاقات رفاقية مفيدة بالبيروقراطية السوفييتية، فعند هؤلاء كل من على رأسها "صح".

كانت ماركسية جيل الستينيات هى ماركسية مثقفين معزولين، دهسهم الواقع فحرمهم كل خيال، ولم يجرؤوا أبداً على تخطى الجمود العقائدى الذى كانت سيادته فى العالم تدل بحد ذاتها على الأزمة العميقة فى ظروف النضال الطبقى، وبينما رفضوا الاعتراف بأزمة الماركسية، عجزوا عن المضى بعيداً عن قبضة إلهام التجربة السوفييتية، سواء فى تصور عالم لا يحكم حركته الاستقطاب بين معسكرين ـ (الذى تقوض بحمد الله أخيراً ليتحرر الصراع الطبقى أخيراً من خناقة، وإن كان أول تحرره قد جاء فى الدول الاشتراكية) أو فى نظرتها للأدب والفن ـ والتاريخ طبعاً ـ المستمدة من علاقة سلطتها بهم، التى هى علاقة إرغام على الكذب قبل أى شىء آخر، أو فى علاقة "الطليعة" بكل من ساقه نكد الطالع ليقع تحت إمرتها، شعباً كان أم طليعة أيضاً.

ولقد نال جيل الحركة الطلابية من هذه الستالينية جانباً، كان له أكبر الأثر فى تأخير إدراكه للمهزلة التى جعلت منه تسلية المثقفين الثوريين من جيل الستينيات. فقد تحولت علاقات يفترض أنها طوعية بين مناضلين يحررون الدنيا بأسرها إلى علاقات عبودية حقيقية، أوصلتها فى مراحل تدهورها إلى شبه عميق بالجماعات الدينية.

لقد اتخذ مفهوم "**الصفوة**" التى تحمل "الوعى" للجماهير منحى فاشستياً، يعزل هذه الصفوة ويضفى عليها تميزاً غير واقعى قبل كل شىء عن "**الجماهير**"، تلك التى تحولت إلى كتل بلا معالم فى أذهان من اتخذوا من قيادتها حرفة لهم، مفهوم آخر من حشد المفاهيم التى صارت من فرط الترداد الأجوف لوازم لغوية يتعارف بها أبناء هذه القبيلة الصفوة، تعطى مظهر التفاهم بين أناس عاجزين عجزاً مدهشاً عن التحاور! فبقدر ما كان هؤلاء يتحولون إلى شلة معزولة عن الناس، تجهل كل ما يتعلق بحياتهم جهلاً فادحاً، ابتداء بمواجهة أعباء الحياة اليومية مثلهم، العمل من أجل اكتساب الرزق ومواجهة مشقات الحياة فى المجتمع الرأسمالى ومغوياته، كان

نشـاطهم يفقـد كل معنـى، ويتحـول إلى تمثيلـية يتـواطأ الممثلون فـيهـا على تصـديق كذبتـهم، فتسـتطيل المناقشـات وتحتـدم دون مـوجب قـوى فى الواقع سوى النزوات الفكرية للمتناقشين الذين أصبح الجدال السياسى والنظرى المبرر الوحيد الفعلى لوجودهم، وبينما التزمت تلك الجماهير السكون التام كـانت تلك المناقشـات تتخـذ طابعـاً فقـهيـاً مـتزايداً عن "تحـولات طبـقيـة" لطبقـات لا يعـرفـون شكل ناسـهـا، ومـفـاضـلات بين "تكتـيكات النضـال" لا يستطيع أن يفصل فيـهـا سوى نبى نظرى، لأنه ليس بوسع إنسـان عـادى أن يقـرر للناس كيف يتحـركون بينما يجهل حتى كيف يعيشون، فضـلاً عمـا هم مسـتعـدون لعمله فى أمـر يخصـهم قبل أن يكون اختـصـاصـاً لغـيـرهم. لقـد غيـرت قطاعـات واسـعـة من شعبنا أفكارها السيـاسيـة، بل ومسـار حياتها الروحية بأسـره، قبل أن ندرك نحن المناضلين أن شيئاً يحدث غير ما نتوقعه، منشغلين فى هذه الأثناء بالمناقشات الحامية، ننقسم فيها ـ جادين ـ كتلاً وشـيـعـاً وولاءات، وقـد تحـولت الثـورة بين أيدينا إلى حلم يقظة طويل، لكنه يفتقـر للبهـجة. إن دائرة كاملة وواسعة من العلاقات أصبح نسيج لحمتها الحـقـيـقى هو الوهم، تسنده نواة من ذكـريات الحـركـة الطلابيـة، بعـد أن تحـررت من كل مـرجع واقعى لاختـبـار مـصـداقـيـة مـا تفـعله. مجاميع من الشـبـان، تضـع نفسـهـا ـ على مـدار سنين طوال ـ تحت عين الشـرطة ومخـالبهـا التى لا ترحم، تعيش حـياة الملاحـقين، وتضحى بصنـع مسـتقـبل شخصى فى الحياة العملية، وأحيـاناً بمواهب واعدة فى مجالات أخرى عن طيب خاطر، وتحـيـا فى ظروف مـعـيشـيـة مضنيـة تبلغ حـدوداً دون المستوى الإنسانى أحياناً، تفعل الأعاجيب كى تتملص من المجتمع بأسره لكى تلتقى، فتصنـع من هذا اللقاء سجناً خـاصـاً بهـا، حيـاة مـوازية بديلة لحياة المجتمع، الاغتـراب هو كلمـة السـر فيـهـا. فهنا يتحـدثون فيمـا لا يتحـدث فيـه الناس، وينشـغلون بما شـاءوا بعـيـداً عن حيـاة هـؤلاء، جدول الأعـمـال حـر يحـددونه حـسب هواهم، وواجـبـات اليـوم حـرة مما يحدث فـى حيـاة الناس اليـومـيـة، تخضـع للمهـام التى يرتأونها بمعـزل عن هذه الحياة، وإيقاع اليوم نفسـه حـر،

غريب بكل هذه الحرية المصنوعة بجهد مريع ـ ولو فقط لما يمليه من غربة عن المجتمع، ليحاروا أحياناً فيما يفعلونه بها، فيأخذون فى قراءة كتب ثورية أحدث ما وصلهم منها يرجع للقرن الماضى أو فى تأمل العالم الذى اغتربوا الآن عنه، مجترّين اغترابهم فى ملاحظات عليه تبدو لهم ذكية، فيجرعون غربتهم التى يعمقونها على هذا النحو يستدرجهم إحساس غِرّ بالتميز. هنا يقيمون قوانينهم الخاصة التى تعز وتذل وترفع وتطيح وتطلق قوى ناس وتحبط قوى ناس، من داخل حكايا ليس لها صلة إلا بهذا العالم الخاص الذى يتحول المجتمع عنده تدريجياً إلى "عالم خارجى"، يصبح "هم" مقابل "نحن"، ونحن غرباء حين نضطر للتعامل مع هذا العالم الخارجى، نلبس حينئذ أدوات تنكر لنقنعه أننا "عاديون" ـ تشتمل على "مهنة" لا نمتهنها ومشاغل "عادية" لم تعد هماً من همومنا نحن بل فقط وسائط للتحريض فى حرفتنا، وحتى هوية فكرية غير هويتنا الحقيقية، باختصار كل الوقائع التى منها يتكون وجود عيانى، التى عبرها يحيا الناس ويتعرفون على ملامح الناس ـ إلا أننا لا نكون على حقيقتنا إلا حين نكون معاً، ولكن أية حقيقة تلك التى تتواجد بكليتها خارج العالم الواقعى!

وفى ذلك العالم الوهمى، تنبت أرض لكل أنواع العجائب، فيها يمكن أن يستحيل الأقزام فحولاً وأن تولد المآسى المُضيعة من مهازل رخيصة، وأن تستغل التضحيات النبيلة فى إرضاء نزوات مريضة، وأن تنشأ صداقات حميمة ـ بل وعلاقات حب بين أناس لا يجدون سبيلاً حقيقياً واحداً للتعرف على بعضهم البعض، وأن تكتسب أية خزعبلات لخيال مهووس قوة اليقين، وأن تصنع "الأحداث" الهامه صدف، بعضها طريف، والبعض الآخر بذىء. كل ذلك كان ممكناً وأكثر، مادام يحدث فى واقع مصطنع خارج كل واقع، ومن ثم فهو أكثر تشوهاً من أى واقع.

لذلك، حين خرجنا للحياة أخيراً، كان الحطام بالجملة، مثل مومياوات أخرجت للشمس فجأة، فتهاوت تراباً، وكان صعباً على كثيرين أن يبلغوا

صلحاً مع أنفسهم بعد كل ما حدث ـ فالواقع الذى خرجوا إليه لم يكن أكثر رحمة، حتى لجأ البعض إلى أيسر الطرق لاستعادة توازنه، الارتداد. أما من لم يستطيعوا التخلص من إدمان **"الأهمية"**، فقد حافظوا على توازنهم القديم ذاته بعلاقات جديدة من نوع مختلف، مع مؤسسات **"إنسانية"** دولية مثلاً، مع أنهم كى يشقوا حياتهم الجديدة دفنوا ذلك الماضى القديم برمته فى زاوية منسية ـ بعد استثماره ـ دون كثير من اللجاجة.

لقد كان ذلك التعيين فى رتبة **"الطليعة"** أول خطوة فى سكة الانفصال عن الناس، فى صنع علاقة بهم أساسها الغربة ـ ولكن منطق الصفوة مضى بقوته الخاصة يفترس صانعيه أنفسهم، بعد أن انفرد بهم. فقد أصبح للمراتبية سطوة على النفوس، تولد تنافساً وسخطاً وبغضاً، بل وخوفاً وأيضاً تملقاً، حتى لتدهش كيف كان هؤلاء يوماً متمردون.

من الأشكال الأكثر فظاظة لهذه المراتبية قسمة غير عادلة صنعت مآسى حقيقية قصمت ظهوراً كثيرة إلى الأبد، وهى القسمة بين **"المؤلفين"** وغير المؤلفين أو الكادحين ممن يشقون فى الأعمال البدنية الشاقة وأيضاً الأكثر عرضه لخطر الملاحقة. فيكفى أن تكون كاتباً، أو أن يتم تعميدك بهذه الصفة، لتحظى بمكانة مرموقة، تصبح قيمة بذاتها تمارس إرهاباً على الآخر ين الذين لايحق لهم أن يحكموا على ما تكتب بل عليهم أن يشتغلوا مفسرين له، ودعاة متحمسين **"ملزمين"** بالدفاع عنه أينما حل، ذلك أنك بالكتابة انتميت لصفوة الصفوة، المبدعين الذين يحددون الاتجاه، **"العقول"** التى توجه **"المنفذين"**. والوجه الآخر لهذا الوضع هو أن يعتبر المناضلون ممن ليس لهم فى التأليف، أو بجاحة الادعاء بامتلاك ناصيته فى كثير من الأحوال، أن يعتبروا أنفسهم معيوبين على نحو ما، محرومين إلى الأبد من مؤهلات هى وحدها التى ترفع المقام وسط المناضلين. فكان طبيعياً أن يكثر المؤلفون، ويهدر المنظمون، أولئك الأبطال المجهولون لكل حركة سياسية حيّة، وقلبها الحقيقى. ولو لم يفقد هؤلاء ـ مثل الجميع ـ

جرأتهم على الحكم المستقل، لأدركوا أن قيمة ما يكتب لا تستحق أن تذلهم، وللعنوا ـ فى الوقت المناسب ـ ذلك النضال الذى يمكن أن يذل المناضلين. وفى الواقع، فإن واحداً من أولئك المؤلفين الأفاضل لم يفلح فى أن يصبح كاتباً معترفاً به حين انتقل للحياة "العادية"* . ومع ذلك، أليس هذا الفصل، ثم التمييز بين المفكرين والمنفذين، تقسيماً للعمل منقول نصاً عن المجتمع الرأسمالى! وبديهى أن يتوج منطق ونظام الصفوة بعلاقة من نفس الصنف مع "الزعيم"، مع الفارق المتوقع فى الكثافة والشدة. فهو فى هذه الشيعة المغلقة شيخ ومفتى، ينتظرون منه القول الفصل وزبد الكلام وتخاريفه المقدسة أيضاً حتى فى العلاقات الشخصية، تقوم علاقتهم به على مبدأ الطاعة المطلقة، والمختلفون معه فى الرأى "خارجون" يستحقون الإعدام (الأدبى طبعاً حتى استلام السلطة)، له عليهم حقوق لا محدودة، حتى فيما هو شخصى، ولا تعجب فى وضع كهذا أن يرثه أحياناً النصابون، ليلفّوا فى نعم السيطرة على كل تلك الرؤوس التى أوقف نموها وفقدت كل استقلال عقلى وروحى عبر تاريخ من الانتهاك "الطوعى".

وهذه النقطة الأخيرة تستحق وقفة، فالأطفال لم يستمروا أطفالاً بلا نهاية، بل جاء وقت لسن الرشد الذى وجب معه الحساب. كانت علاقة هؤلاء بالثقافة عموماً وبالماركسية خصوصاً محدودة، ولأنهم تحولوا إلى قادة للشعب المصرى قبل أن يتسنى لهم التعامل مع أبسط حقائق الحياة ومسئولياتها، فقد وقعوا فى كماشة بين الغرور والعجز، فلا هم امتلكوا من الأمانة ما يكفى لإعلان العجز عن تولى "القيادة" ـ لمن يهمهم الأمر على الأقل ـ ولا هم استطاعوا أن "يسدُّوا"، وبالتالى فقد كانوا بحاجة "لمعجزة" تحل هذه المعضلة الواقعية إلى حد مدهش، وكان الحل هو تسليم ذقونهم إلى من يستطيعون الجلوس على حجره والتمتع مع ذلك بوضع القيادة، إلى

---

* تقتصر هذه الإشارة على الكتاب المهتمين لتجربة جيل الحركة الطلابية، ولا تشمل من احترفوا الكتابة السياسية وغيرها من قبل تلك الفترة.

ناس كل شهاداتها فى النضال هى أنهم سجنوا ذات يوم، ولم يسمع عنهم أنهم أفلحوا فى قيادة نعجة ولكنهم - وقد عثروا على هؤلاء "اللقية" - كانت لديهم بجاحة الادعاء بامتلاك حل لمعضلات النضال، التى لم تحل طبعاً، وبالتالى فإن ما حدث لم يكن معجزة بل كارثة، فقد قادوهم - وبثبات يحسدون عليه - حتى التحلل الكامل.

كان هذا هو المصير المشترك لكل اليساريين من جيل الحركة الطلابية، من اقصى اليسار لأقصى اليمين، جمعتهم وحدة الاستغلال من قبل جيل لوثته الحياة وتجربته مع نظام عبد الناصر فى غيبة أى نضال حقيقى، تلوثياً عميقاً لا براء منه لقد وقع الطلبة فى شر أعمالهم، فقد تورطوا فى علاقة "اعتلام" للشعب قبل أن يتبينوا المهمة التى اختاروها لأنفسهم، وقد استحق المغفلون أن يمتطيهم الأفاقون.

وقد جاء انحسار الحركة الطلابية ليصنع أرضية مأساوية لهذه المهزلة، ويعطيها أبعادها الكاريكاتيرية والمخيفة معاً، فبذلك أعد التاريخ المسرح لمزلتنا، وقد تكفلنا نحن بالباقى، وحينئذ لم يعد بوسع أنبل النوايا والتضحيات الوافرة حقاً أن تمنع التحلل التدريجى حتى الانهيار غير العظيم.

٢.فى مسارات مختلفة:
الناس اللى فوق، والناس اللى تحت

كان المثقفون من أبناء الطبقات المالكة فى الزمان القديم، أيام أن كانت هذه تستند إلى تراث عريض وثقافة وتقاليد عريقة، حين يتمردون على الموت الروحى لطبقتهم دون أن يبين أمامهم طريق، يتوحشون. كذلك فعل بطل رائعة ليرمنتوف "**بطل من هذا الزمان**"، هذا البطل النبيل الجميل المتعالى حتى على الموت، تبددت أوهامه عن طبقته فتركها فى العاصمة تلهو

بمباهجها المعتادة ـ البذخ والنميمة ـ وذهب وحده فى رحلة لا عودة منها، بحثاً عن شىء حىّ فى فيافى روسيا الواسعة، ليتوهم العثور عليه مرة عند فتاة تترية لا يعرف لغتها وتفصلها عنه قرون من التخلف، ثم يحاول اقتناصه مرات ـ مختصراً طريق التجارب ـ بملاعبة الموت، بعد أن لم تروه ملاعبة الحب المهدّد دائماً "**بالنهايات السعيدة**"، وأخيراً فى السفر إلى بلاد غريبة (فارس) حيث يكتمل اغترابه، كى يموت فى الغربة بالملاريا، بعد أن مات جزء منه مع كل تجربة تسرب فيها الأمل أو الوهم فى العثور على خلاص، وغرقت روحه كلية فى الوحشة.

ولكن أبناء الطبقات المالكة الحديثة مختلفون، (ربما فى دول العالم الثالث خاصة). قضى عبد الناصر على "**الرأسمالية المستغلة**" وصنع على يديه برجوازية جديدة، التقط من أبناء طبقته بالمولد ـ البرجوازية الصغيرة ـ أولئك الذين سيصبحون سادة مصر "**الاشتراكية**"، وعماد جيشه الاقتصادى والسياسى، الذين يدينون له ولنظامه بالولاء. ولقد رحمه الموت فلم يعش حتى يرى بعينيه ويسمع بأذنيه، جنوده المخلصين يتذمرون فى مجالسهم الخاصة من "**تدخل الدولة**" فى أعمال القطاع الخاص (الذى يستثمرون فيه أموالاً "اشتراكية" طبعاً لا موروثة)، بل وينشبون الأظافر على أعمدة الصحف فى "**عهد الديكتاتورية**"، ذلك الذى لم يبق يذكره بالخير إلا اقل من استفادوا منه ـ من حيث الامتيازات والقرب من السلطة ومصادر اغتراف المال ـ والمضارين الحقيقيين الوحيدين من ديكتاتوريته التى سلبتهم كل سلاح للدفاع عن النفس، فهزموا دون معركة حين جاء الهجوم التترى للانفتاح، إنهم أولئك الذين مازالوا يذكرون له أنه باعهم حلماً، يخص الكرامة، كرامتهم وكرامة الوطن ـ أيام أن كانا واحداً ـ ولقد صنعوه على عينهم.

أبناء الطبقة الجديدة إذن (فى عهد عبد الناصر) ليسوا طبقة عريقة مغلقة تكونت ملامحها فى تاريخ طويل، بل خليط اجتمع من شتى أرجاء البرجوازية الصغيرة الشاسعة فى بلادنا، وهؤلاء الذين صعدوا لم يأخذوا

طبقتهم معهم بالطبع، بل انفصلوا عنها، لذلك تجد الأسرة منهم نصفها يتربع عالياً قرب القمة، ونصفها الآخر مدلّى إلى تحت، عند "الشعب"، أخ وزير وعم غفير. نصف الذاكرة يرتاد النوادى الفاخرة وحمامات السباحة والعواصم الأوربية، ونصفها يرجع إلى الحوارى حيث الكرة الشراب والصياعة وذكريات حميمة كثيرة، إلا أنها ماض يمثل جزءاً من خريطة اجتماعية اندثرت بأسرها، ويحسن نسيانهما معاً. نصف السيكولوچية يمتلئ بقوة أولئك الذين يتصرفون من موقع النفوذ، ويصغى الناس جيداً للكلام حين يتكلمون، ونصفه يجيش بتناقضات البرجوازى الصغير الذى يرتعب من السلطة (ما بالك بسلطة عبد الناصر) ويطمح إلى الصعود، ويحب مع ذلك أن يبقى "طاهر الذيل". ولقد وفرت سلطة عبد الناصر بالفعل حلاً مثالياً - تقريباً - لهذه التناقضات عند من صعدوا إليها، فبينما استمتعوا بكل امتيازات السلطة، تمتعوا أيضاً بكبرياء من ليسوا خدماً لنظام، بل أنصار قضية وطنية و "اشتراكية" علاوة على ذلك. ولكن هذا فقط إلى حين، فقد كبروا بالفعل أثناء ذلك بما يكفى ليتعلموا النظر للدنيا بعيون البرجوازية، التى لا تحتاج مبادئ تبرر لها سلوكها، المالى خاصة، وحين جاء الزمن الجديد كانوا قد اكتسبوا من "المرونة" ما يكفى للتعامل معه، تعلموا بسرعة أن الاستثمار لا دين له*، بالأمس كان اشتراكياً، واليوم امتلأ السوق بالواجهات، من الأجنبية وحتى السلفية، وراح كل منهم ينتقى منها ما لاءم ميوله العقائدية الجديدة التى ازدهرت فى العصر الجديد، ولكن الاختيار نفسه ظل واحداً، لا دين له.

ومع ذلك فقد احتفظوا بالكبرياء القديم، كبرياء من يعتبرون أنفسهم من طبقة محترمة، متميزة عن "واغش" الانفتاح، الذى تسوءهم كثيراً "الأصول الطبقية" لمن جلبهم من مليونيرات جدد، ولكن قوانين السوق لا تجد الزبال (أو العتال) أقل جدارة بالثروة من البرجوازى الصغير السابق، وفى ذلك من "الديمقراطية" البرجوازية، من عدالتها إن صح التعبير، ما لا

* التعبير مأخوذ عن / د. فؤاد زكريا فى مقال له بصحيفة الأهرام عن مأساة الريان.

يفهمه الاشتراكيون السابقون، تحديداً لأن بقايا البرجوازى الصغير، احترامه العريق **"للمراتبيه"**، وأوهامه عن **"الطبقات العليا"** - التى ظن أنه آخر طابور المقتحمين لصفوفها فى التاريخ - ما تزال تجرى فى العروق. فليس **"الاستيلاء"** هو ما يحق لهم رفض الزبالين على أساسه، فقد تكونوا كطبقة عن هذا الطريق بالذات، إذ كانوا المستفيدين الرئيسيين من الاستيلاء على ممتلكات الإقطاعيين والرأسماليين السابقين وسلطتهم ونواديهم واستراحاتهم.. إلخ (ويبدو أن جميع الطبقات المالكة تصاب بفقد الذاكرة حين يتعلق الأمر بالطرق التى كونت هى بها ثرواتها). أما ميزتهم الوحيدة الحقيقية هنا على غيرهم من حيث **"المبدأ"**، تلك التى أضفت مشروعية على الاستيلاء، وهى اقتران صعودهم الاجتماعى بمشروع رأسمالى وطنى طموح أسماه عبد الناصر **"اشتراكياً"** (علّه يخدع التاريخ أيضاً) فإنهم يتنصلون منها ومنه كنوع من أنواع الجرب (مبرهنين على صعوبة خديعة التاريخ إلى ما لا نهاية)، حتى العداء للاستعمار اكتشفوا أنه كان مصدر كل الكوارث، بعد أن اتضح انه ليس مجانياً كصعودهم الطبقى. ولا غرابة أن جاءت نهاية المشروع الذى صنعهم - ولم يصنعوه - على أيديهم (قرر الرئيس ونفذوا، تماماً كما رباهم سلفه **"الاشتراكى"** فى كل القرارات **"المصيرية"**، حتى **"المعترضين"** لم ينسوا أن يأخذوا معهم **"أموالهم"** يستثمرونها فى الخارج). أعلنوا بشجاعة تليق بهم انتهاء عصر الأحلام الكبرى وتدشين عهد **"الواقعية"**، حيث لا أحلام، لا هدف، لا موضوع للحياة سوى التملك، مصدر الأمن والأمان وجائزة السباق بين أفراد شعب لم يعد يجمعهم سوى صراع جهنمى من أجل البقاء.

يفسر هذا التكوين الطبقى عبودية طبقة البرجوازية الجديدة الناصرية، بل ما يكاد أن يكون انسحاقاً تجاه الملكية بكل مفرداتها، والمناصب والمراكز واحترامها العميق للرتب الطبقية، تجاه كل ما بدا أن الثورة البرجوازية عموماً جاءت لتحطمه لتحل أوضاعاً أكثر ديمقراطية فى العلاقات بين طبقات **"الشعب"**. وهو ايضاً الذى يفسر المسارات التى

اخذها ابناؤهم بعد هزيمتهم كمناضلين وسلوكياتهم ومزاجهم العام. فهم لم يُجّنوا أو يتدروشوا أو يتحولوا إلى مدمنى خمر كما حدث لآخرين من أبناء البرجوازية الصغيرة، كما لم يضطروا - مثل بعضهم الآخر - لبيع أنفسهم كى ينجوا من السقوط الاجتماعى (ومع ذلك يمارسون ذلك الترف الوقح، الإدانة)، وإنما تشبثوا بحبل النجاة، حبل الملكية. فحين توقف هؤلاء عن النضال وجدوا المؤسسات التى تمردوا عليها من قبل فى انتظارهم لتسندهم، الأسرة القادرة التى تحمى وتقدم العون المالى، وعلاقاتها المتنفذة التى تقدم إمكانات العمل والسفر، الترف "ليرفه" عنهم بعض طول إرهاق، العلاقات العامة الناجحة التى تحيطهم بالاحترام، ولكن على أساس جديد الآن. فمحل النجومية السياسية، حلت النجومية الاجتماعية، لقد تحولوا إلى مراكز طبقية، نقاط جذب يدور فى أفلاكها المناضلون السابقون من الطبقات الأخرى، حيث تجرى "مقايضة" من نوع غريب. هم، بوضعهم الاجتماعى وعلاقاتهم الواسعة والمهمة وأيضاً بترفهم، يستقبلون من مركزهم من يختارونهم من "الموهوبين" الأفقر فى الجيل، الذين استطاعوا أن يحققوا إبداعاً فى مجال ما، أو يلمعوا، حتى بصرف النظر عن الموهبة - فى نشاط يكسبهم أهمية، أو حتى مجرد أن يكونوا "ظرفاء" فى مجالس الأكل والشرب والثرثرة التقدمية وهؤلاء الأخيرون ينجذبون لهذه المراكز الطبقية، ليس للحصول على فائدة محددة بالضرورة، بل لأن للترف جاذبيته، وذلك الجو المسترخى الذى يبدو خالياً من المعاناة لأول وهلة على الأقل، يجتذب أولئك الذين داستهم الحياة بنفس القوة التى يجتذب بها النفعيين. ورغم أن أحداً لم يتعمد خلق هذا الوضع فى البداية، إلا أنه انخلق بقوة الأمر الواقع، فأنداد الأمس كان يجمعهم التمرد بأخلاقياته ومعاييره المختلفة التى بدا لوهلة أنها قادرة على خلق مجتمع صغير "حر" من سطوة المجتمع وقوانينه العنيدة، وحين انحل ذلك المحور الجامع، استقرت هذه العلاقات على القاعدة الوحيدة الحاكمة للعلاقات فى المجتمع القائم، الوحيدة "الواقعية" الآن، قاعدة العلاقات الطبقية. ومع ذلك فإن هذه المحاور الطبقية التى

نشأت تلقائياً سرعان ما خلقت آليتها الخاصة التى لم يعد ممكناً معها وصفها "**بالتلقائية**"، فقد ازداد كل الاطراف وعياً بالمقايضة الجارية، وزاد التصرف على أساسها فجاجة، أصبح "**حقاً**" يطالب أبناء البرجوازية الآخرين باحترامه، بل يمكن أن يستعرضوا قوتهم لإجبار الآخرين على احترامه، ونشب صراع صامت بين المحاور حول النجومية، بل أصبح للشلل اسماء مثل الأحزاب. وغنى عن القول أن العلاقات داخل هذه الشلل التى اصبحت اكثر تعصباً من اى حزب، تأكلها المنافسة والغيرة والمرارة والحسابات، باختصار كل مظاهر التحلل، فلقد اتضح أن الذكريات ليست أساساً كافياً لإقامة علاقات "**إنسانية**" .

فى المقابل راح جمهور البرجوازيين الصغار من المناضلين السابقين الذين فاتهم القطار الاجتماعى أثناء سنوات التضحية بينما كان يسير بسرعة فى اتجاه الاستقطاب الطبقى الحاد مسقطاً فى الطريق شرائح متزايدة الاتساع من البرجوازية الصغيرة، راح يحاول إيجاد أرض ثابتة تحت قدميه بعد أن اتضح له أن الحلم ليس هو كل ما ضاع منه. ولأن الزمن ليس زمن الستينيات حيث كان يمكن العيش بالقليل، وحيث لا يحتاج المرء أن يكون مناضلاً كى يمتلئ وجدانه بالكثير فى عالم يمور بالتغيرات والأحلام السياسية والحيوية الفكرية حتى على المستوى العالمى، فإن البحث عن الأمان ـ المادى والمعنوى أيضاً ـ انتهى بالبعض منهم إلى نهايات لم يحلم بها مثقفو الستينيات. فالعمل فى المقاولات مثلاً بل وحتى الانتقال إلى أحزاب فاشستية سافرة لكنها تتضمن صعوداً سريعاً وقبولاً اجتماعياً، ناهيك عن المؤسسات الصحفية الخليجية التى امتصت كل من له ظل موهبة فى عمل "**ثقافى**" كان أثره الوحيد الحقيقى هو تحويلهم هم إلى باعة ثقافة على المقاس البترولى. ولولا ما فى ذلك من مرارة، لكان طريفاً مشهد البرجوازيين الصغار الذين صعدوا بسبل مختلفة ليصبحوا جزءاً من مؤسسات المجتمع "**المحترمة**" التى تحيطهم الآن بوضع جديد مالياً ومعنوياً (منحة دراسية ـ اشتراكية أو راسمالية ـ عمل فى مؤسسة رسمية ـ زيجة)

وهم يهاجمون مواقفهم السابقة بكل ضراوة للدفاع عن الذات، فتسمع أحدهم مثلاً يسخر ـ بحرارة خاصة ـ من سذاجة لينين حين فكر فى تطبيق مبدأ مساواة أجور "**المهنيين**" بالعمال، بل ترى شخصاً غير طريقته فى نطق الكلمات نفسها إلى طريقة يظن أنها تشبه طريقة "**أولاد الناس**"، طريقة رخوة، معاكسة بالضبط لنبرته منذ عشرين عاماً، حين كان يوترها تشنج مضطرب. الغريب أن أكثر هؤلاء تطرفاً فى الماضى، كانوا هم الأكثر انشداداً فى الاتجاه المضاد فى زمن الهزيمة، غير أن "**التطرف**" لم يكن يعبر بالذات عن التماسك كما كان يُظن حينئذ.. لقد وحدتنا "**الأفكار**" ـ أو هكذا ظننا ولكن كلاً منا كان له حلمه الخاص، بل بالغ الخصوصية وهو ينخرط فى "**النضـــال**"، ذلك الأمر الخطير المهيب لكن العمومى المبهم ـ فى غياب الاشتراك الفعلى لأصحاب الشأن، حلم خاص صنعته قصة خاصة حافلة بأشياء ليست حلوة كلها ولا نبيلة كحلم الثورة الطاغى فى الاندفاعة الأولى، ليختلط الحلم بالحقد أحياناً حتى يصعب التمييز بينهما، حقد يستحيل استدراجه للطيبة أو الغفران، حقد لا شخصى تقريباً، أشبه بالعقيدة، لكن له قوة لافحة تفلح دائماً فى العثور على هدف جديد لها، تستهلكه لتبقى هى.

ولقد طفت تلك الأشياء إلى السطح حتى من قبل "**العودة للواقع**" حين تحول " **العمل الثورى**" إلى مستنقع تزدهر فيه الأمراض. كان المناضلون من هذا النوع مولوعين "**بالسلطة**"، نعم السلطة، والاستبداد بالآخرين والتدخل فى صوغ حياتهم الشخصية إن أمكن، باستهتار من لايرون لحياة إنسان أية قيمة تزيد على الفخامة التى يمنحها لهم إصدار الأحكام القاطعة دوماً حين تخرج من شفاههم بحكمة، خصوصاً تهمة "**برجوازى**" التى كان يمكن أن تلحق بشخص لأنه يحب السينما مثلاً، وخطر له أن يدرسها. كان هؤلاء عبيداً للسلطة حين يحوزونها وحين يخضعون لها بنفس الضراوة، وهم بالذات الذين استبدلوا بهذا الولع فى أيام العمل الثورى، شهوة جمع المال فى زمن العودة للواقع وكانوا بين الجميع ـ الأقل خجلاً من أنفسهم، والأكثر

كفاحاً فى التدافع بالمناكب الآن للوصول وسط الحياة الشرسة التى وظفت كل خبرات ماضيهم كما لم يحلم أحد.

وعـــدا "زبـــدة" البرجوازية الصغيرة هذه ونماذجها المتطرفة دخلت جمهرتها الواسعة مفرمة البحث عن الرزق الذى غدا صعب المنال ومستنزفاً حين يأتى، لتستهلكهم تماماً دوامة الحياة اليومية الشاقة فى بلادنا الآن، وتعزلهم عن بعضهم البعض وعن أى نشاط عام - وهو غير موجود تقريباً على أية حال، وعن ماض لم يبق منه سوى ندبة غائرة.

ولأن الزمن ليس فيه ما يفعله المرء سوى أن يتملك، فإن أولئك الذين سقطوا من القطار تماماً لم يبق لديهم عمل سوى الاستسلام للكآبة، فترى بعضهم على ما بقى من مقاهى المثقفين - يكمل صورة حطامها، يمارس بطولة لا بطولة فيها لذلك الذى فقد الأوهام وأصبح يزدرى كل الناس وكل شىء.

فى هذه الأثناء بقيت أقلية مصرة على النضال، ضمت نوعين فريدين من البشر واحد يذكرك بالأبطال التراجيديين المحكوم عليهم، لأنه يقاوم انهياراً فوق طاقة الأفراد على مقاومته، ببطولة وإنكار ذات مذهلين فى ظل الحصار الذى لا تبدو مقدمات للفكاك منه، الآن على الأقل، والثانى هو ببساطة بقايا متحجرة لوضع قديم تآكل وانتهى، إنه مستمر ليس بسبب أى تعاطف مع الناس الذين يناضل من أجلهم، والذين يسمـون فى قامـوس المثقفين الثوريين "**الناس العادية**" (أى والله! تبلدنا حتى اعتدنا استعمال هذا التعبير بلا خجل، وصحيح أن الحياة "**العادية**" مليئة بالشخصيات الباهتة ولكن كذلك أيضاً اليساريين، فهم لم يخرجوا من رأس إله من الآلهة)، وإنما يستمر لأن هذا هو قدر العظماء! عند هذا النوع ليست "**القضية**" ناساً وبشراً عيانيين ومصيرهم، بل ذلك الشىء الذى أسهم فيه "**أنا**"، وأنا لا أنتمى لبشر محددين بل "**للقضية**"! أليس هذا هو ما يسمونه فى الماركسية "**بالتشيؤ**"؟). على كل حال، حين تكون "**القضية**" على هذا

الوضع الذى لا تحسد عليه، يمكن تخيل مقدار الانسحاق المرافق لجنون العظمة هذا، والذى يجعل من هؤلاء أحد المظاهر الساخرة للانحلال الذى يظنون أنهم خارجه.

فى ضوء هذه الخلفية نستطيع أن نفهم الطبيعة الحقيقة لشعار المرحلة - مرحلة الهزيمة - الذى ترفعه "**صفوة**" المناضلين السابقين من كل الطبقات، شعار "**تحقيق الذات**" سئ الصيت. لم يعد هذا المطلب يعنى - كما كان ونحن صغار - البحث عن حياة أكثر غنى وامتلاء من مجرد العيش لأجل الكسب، وطموح الإبداع فيه مُحمل بالتمرد، بحلم مغاير لما هى عليه الأمور، جزء من علاقة شاملة بالعالم، علاقة حقيقية - ليست ترفاً - بما يحدث فيه وتضطرب به حيوات الناس الآخرين، بل أصبح هو البحث عن مكان تحت الشمس، عن موطئ قدم فى الهرم الطبقى الذى لا يعبأ بالنكرات، امتياز إضافى لأناس هلهلتهم الهرولة من أجل الحصول على امتيازات من هذا الواقع الزرى، يريدون اعتلاءه ونقده معاً! ومن هذه الرغبة، وبهذه الشروط خاصة يأملون - بسذاجة مدهشة - أن يقدروا على الإبداع. لذلك فإن اللغة التى يتكلمونها عنه، بل معاييره الحقيقية عندهم لغة "**النجاح والفشل**" والنجومية والمنافسة، لغة "**بيزنس**" لا لغة معرفة. وفيما بيننا، أصبح الحصول على "**حيثية**" من هذا النوع بطاقة لعقد الصداقات وحق الدعوة للمجالس التقدمية. لهذا - بين أسباب أخرى - لم يقدم جيلنا من المواهب سوى المتوسطين.

إن أولئك الذين أعدوا أنفسهم لدور البطولة ولا أقل، حين أعوزتهم الساحة لم يعودوا كما كانوا، بل انصلبوا على دورهم المفقود. لقد بدأوا أيام الحركة الطلابية بذلك الاندفاع النبيل، يحمل هموم الوطن على الكتف، ويخرج من ذاته الضيقة إلى "**الشارع الواسع الفاتح له يديه**"* يتشارك مع الناس فى الأزمة ويحاولون معاً صنع مستقبل يريدونه هم، ولا يراد بهم.

* حسب التعبير الجميل لصلاح جاهين.

وعرفوا طعم التضامن فى الشارع، وضمة اليد القوية الحانية، يد الجماعة حين تجرؤ فتقيم باحتجاجها "**عيد المقهورين**"، ولكن الأمر انتهى بهم - بعد أن لم يطل العيد كثيراً - إلى أن أصبحت "**القضية**" هى إيجاد حل لذواتهم العاطلة. كنا بالأمس نقدم أنفسنا وقوداً لقضية راضين، واليوم أصبح مبرر وجود القضية، أى قضية، هو تأكيد ذواتنا التى تمددت كثيراً فى الفراغ. يصدق هذا لا على المحاور الطبقية ومجالسها فحسب، بل وأيضاً على الأنشطة "**الجادة**": الأبحاث والدراسات و"**الشهادات العليا**" التى كثر الطلب عليها، وإقامة صلات مع منظمات دولية لاكتساب الأهمية، بل وحتى النشاط فى "**الأحياء الشعبية**" أصبحت القضية ملحقاً لنا، قشة نتعلق بها هرباً من واقع صرنا من ضحاياه، مجرد فقراء ومجرد أغنياء.

غير أن مظهر الردة الذى شمل الجميع فى الجيل، الذى لا تكتمل الصورة بدونه، هو ذلك المتعلق بالحب والزواج، الأسرة.

ربما كانت أبرز مميزات جيل السبعينيات على جيل الستينيات من اليساريين هى اقتران ظهوره بحركة جماهيرية لحقته فى مطلع الشباب الأمر الذى جعله يبذل محاولة صادقة للاتساق مع مبادئه، بما فى ذلك ما يتعلق بالعلاقة بين الرجل والمرأة. ومن الوقائع المهمة هنا أن الحركة الطلابية جلبت كثيراً من الفتيات إلى النشاط السياسى الجماهيرى، وهى ظاهرة لم تعرفها الأجيال السابقة من اليساريين، ولأول مرة فى تاريخ اليسار تظهر إمكانية لتخطى الفصام الذى حكم علاقة اليساريين من الأجيال السابقة بالمرأة، والذى اتخذ أسوأ أشكاله عند جيل الستينيات خاصة، فقد اعتنق هؤلاء مبادئ جديدة فى العلاقة بين الجنسين، ولكنهم كانوا يتحركون فى وسط تقليدى تماماً وهو الذى تربوا فيه، ولم تشهد حقبتهم ثورة تحيط بالتساؤل العلاقة القائمة بين الرجل والمرأة فى مجتمعنا، بينما اكتفى النظام الناصرى بدعاية رزينة "**لدخول المرأة مجال العمل**" فى إطار حلم للصعود الطبقى يدعوها "**للتكافح مع زوجها حتى يصلا**"

(إلى مصاف البرجوازية بالطبع فهذا هو الحلم الوحيد "**المفهوم**" حتى فى علاقة الرجل بالمرأة). إنه الوسط الذى يحدد هوية المرأة وحكمه النهائى بشأنها، حسب وظيفتها الجنسية فى علاقتها بالرجل، فهى إما آنسة أو زوجة أو أرملة أو مطلقة (فى الدرجة الدنيا)، عدا ذلك فهى عاهرة، وهذا طبعاً ما يتحول أمامه حديث العمل إلى هذر لطيف لا يؤذى، وردة ترشقها على صدرها الآنسة أو السيدة أو الأرملة أو المطلقة، ولكن إياها أن تخرج من إحدى هذه الخانات، فمعيار العمل والإنجاز للرجال فقط فى الواقع. المهم أن هؤلاء اليساريين استقبلوا تجاربهم مع المرأة بنفسية الوسط التقليدى الذى صنعهم، لا "**بمبادئهم**"، فكانت هذه التجارب خرقاً لمحظورات قديمة لا اختياراً حراً لأخلاقيات جديدة، ومن ثم انتهت تجاربهم - المفصولة عن مبادئهم، بل التى تعقدت بها - إما إلى زواج تقليدى أو إلى تجارب فى الانحلال تتجاوز مرضيتها ولا أخلاقيتها كل حد، أو إلى الجمع بينهما.

كان جيل الحركة الطلابية هو أول جيل يسارى يصدق فى حلم الارتباط الحر، المتحرر من الحسابات الاجتماعية، المبنى على الحب الشخصى فقط، الذى ينشأ الالتزام فيه بالآخر لا عن أشكال قسرية يفرضها المجتمع، بل فقط عن الرغبة فى الاستمرار معاً. وبدا هذا الحلم الوردى جزءاً من منظومة شاملة متجانسة، من حلم كبير بتغيير العالم، ليقوى ويلهم العلاقة بين الحبيبين (اللذين يربطهما الآن ما هو أكبر من الحب الشخصى). وبدا أن التمرد فى الحياة الشخصية يترافق مع التمرد السياسى، متسقاً معه، ومكتسباً عنفواناً وسخونة من سن العشرينيات خالى البال*. وتزوج الشبان الصغار، أحياناً كثيرة ضد رغبة الأهل، فقط لأن هذا هو الشكل الوحيد الذى يقبل به المجتمع علاقاتهم، ليعيشوا لفترة من الزمن أسطورة البيت الفقير الذى ليس له من دعائم سوى الحب والتمرد المشترك.

---

* لا يشمل هذا الوصف كل صورة هذا الجانب عند جيل الحركة الطلابية، ولكنه يبقى صحيحاً أنه كان اتجاهاً قوياً فى صفوفها.

ولكن الوقت لم يطل قبل أن يبدأ الانهيار. تغير أولاً الواقع الاجتماعى فى غير الاتجاه المنشود، صانعاً أرضاً للعلاقات بينهم رغم أنفهم، فقاومه البعض فترة بالأمل فى أن يسير الواقع فى اتجاه تحولات ثورية رغم كل شىء، ولكن الانهيار هو الذى لحق بالحلم فى النهاية، ليفرض الواقع الجديد قانونه، ومعه تغير موقع علاقات الحب والزواج، وقانونها الداخلى ودورها فى حياتهم.

فوسط الانهيار العظيم، أخذ الجميع يبحث عن أرض مضمونة يسند إليها قدميه اللتين اتضح أنهما كانتا معلقتين فى الهواء، وفى واقع انعدمت فيه كل أرضية مشتركة بين أفراد المجتمع بأسره، حيث الهم الوحيد الحقيقى هو أن يؤمن كل فرد نفسه مادياً، أصبحت "**الأسرة**" - بعد الشغل - هى الحصن الرئيسى للفرد الذى لم يعد ينتمى "فى الواقع" إلا لأسرته، الأرض الوحيدة "**الحقيقية**" تحت قدميه (وهو ما لم يمنعها من أن تبلغ ذروة من التحلل لم تعرفها بلادنا من قبل) ولم يكن الثوريون السابقون استثناءً من هذا البحث عن جزيرة صغيرة خاصة يقف عليها المرء وسط هذا الطوفان، بل لعل حاجتهم كانت أكثر ضراوة.

لم يعد هناك حلم مشترك، بل خوف مشترك من الخواء الذى يحل بعد ضياع الأحلام. من عدم الأمان الاقتصادى، ومن الوحدة التى تكتسح مجتمعاً يبدو الجميع فيه منشغلاً بنفسه وقد فقد "**الموضوع**" مع ذلك، ليس لديه ما يتبادله مع بعضه البعض سوى الشكوك أحياناً والمنافع طوال الوقت، "**الأفكار**" فيه ترف غريب فاقد المعنى، شأن الواقع نفسه الذى لم يعد أحد يحلم بالخلاص من سطوته، فيقنع الجميع "**بالتسلية**" لقتل الوقت.

وبينما أخذت تتآكل "**فى الواقع**" الأرضية المشتركة التى جمعت الأحباء فى هذا الجيل ذات يوم، قويت شوكة "**الأسرة**" فيه، ذلك الشكل الذى توطد تحديداً بقدر ما ضعف كل ما هو حىّ وصادق فى محتوى العلاقة بين طرفيه، وبينما بدأنا نشهد منازعات الثنائيات الزوجية (فلان وزوجته ضد

فلان وزوجته) كانت العلاقات بين هؤلاء الأزواج تتردى ترديا هائلا، لقد تحولت العلاقة التى رجعت إلى القواعد الاجتماعية السائدة إلى "**مؤسسة**" يحتمى بها الزوجان من ضراوة الأوضاع المحيطة بهما، ومن هواجسهما الداخلية التى يجددها الإحساس بالعجز وعدم الاتساق مع الذات، بأن ما يجمعهما الآن لا علاقة له بما كان يجمعهما ذات يوم ولا تزيد جلسات الثرثرة التقدمية هذه الأحاسيس إلا سوءاً. ولأن كليهما يحتمى بهذه المؤسسة فى إطار أنانى محض، فإن الزوجين اللذين تبددت أوهامهما عن أحدهما الآخر فى واقع قاس كاشف، لا يقدمان دعماً إنسانياً لأحدهما الآخر فى هذا الوضع الصعب، بل يتجاوران تجاوراً شائكاً فى أحسن الأحوال، حيث لا تفلح النزهات الفاخرة عند النسخ البرجوازية من هذه الأسر - أو التى صارت برجوازية، فى جمع شمل يفرقه عنصر جديد برز الآن، "**المنافسة**" بين الزوجين فى إثبات الذات وتأكيدها، إلى آخر تلك الأشياء التى يعزى غيابها فى الأسر "**التقليدية**" العجز عن التفاهم، ولقد تعلمنا أيضاً شيئاً من "**واقعية**" جيل الستينيات، فالملل الزوجى المحتم فى المؤسسة، أصبح يجد متنفسه فى الطريق القديم المطروق، الخيانة الزوجية، كى لا ينقص من محتويات الأسرة البرجوازية شىء. لقد أصبحت المصلحة هى التى تجمع الزوجين الآن، مصلحة ألا يتحول أحدهما إلى طريد فى هذا الزحام القاسى الذى يدوس غير المدعومين، ولو بأسرة أقله! بل الملكية، الأولاد ومستوى المعيشة الذى غدا مهماً وغالى الثمن فى الوقت نفسه، حيث تخلق الأسرة آلياتها الخاصة، يجب الوصول لمستوى معيشى معين ويجب الحفاظ عليه (فما ذنب الأولاد؟)، وينتقل التركيز ومركز الثقل فى العلاقة بين أطراف هذه الأسرة إلى هذه النقطة التى غدت فاصلة فى وجودها نفسه ثم أخيراً الأحساس بالإعياء (فلماذا يغيرون حياتهم؟، وإلى ماذا؟!)

لقد تلاشى كل ما هو شخصى فى الزواج، أصبح علاقة لا يهم فيها

الشـخـص بل ذلك الذى يصلح للعب دور الـزوج أو الزوجـة داخل الحـسـبـة الأنانية لكل منهما، أصبح علاقة **"مفترية"**•

وبهذه الهـزيمة الشخصية، اكتملت معالم هـزيمة هذا الجيل، وأصبحت الأسـرة فيـه، مثل كل أسـرة أخرى فى المجتمع الآخذ فى الانهيـار، مجـرد مؤسسة للملكية، تحكمها كل قوانين الملكية والصـراع المرتبط بين الزوجين حول من يكون السيد الحقيقى فى المؤسسة.

بين قـوسـين:

أبناء الارستقراطية نبت جميل ذابل من عالم الشخصى، كان يمكن ان يقدموا بعضاً من انبل مثقفى هذا الجيل، لولا أن شراسة الواقع جعلت قدرهم الغرابة، فهل يصلح لهم عزاءً، أن مجتمعنا كله أضحى غريباً!.

٣ ـ نموذجان من الجيل :

ابن البرجوازية الصغيرة : ***حين يعجز المرء عن فهم العالم، يحاكمه !***

ابن البرجوازية الكبيرة: ***الأنانى البرئ !***

ليس صحيحاً أن أبناء البرجوازية الكبيرة **"غير معقدين"** كأبناء البرجوازية الصغيرة، صحيح أن التعقيد مختلف ولكنه موجود. فحياتهم مليئة بحسابات بالغة التعقيد، وحتى العنف، وهم يفتحون عيونهم عليها مبكراً جداً، لا يمرون مثل البرجوازى الصغير بمرحلة "البـراءة"، فأوهامهم عن العالم تفض منذ الطفولة، بخيانة الأب أو الأم أو كليهما، بحسابات العلاقات الاجتماعية التى تتنفسها الأسرة البرجوازية فى حياتها اليومية بتلك "الثقة" التى تعلم بها الأسرة البرجوازية أبناءها الجرأة على التحديق

• اذكر القارئ بأنى اتحدث عن "نموذج" لا يضم الجميع ولكن غالبيتهم.

فى العالم كما هو، بدون غمامات "**أيديولوچية**" عما يجب أن يكون عليه، أو أوهام أخلاقية عما يجب أن يكونوا هم أنفسهم عليه، بل يتعلمون منذ البدء أن العالم مخلوق للأقوى، لهم، للقادر على أخذه بدون أوهام أيديولوچية وأخلاقية و"**مثل عليا**"، إلى آخر تلك الدعائم التى يتحامل عليها البرجوازى الصغير ليواجه عالماً أوسع وأعقد من أن يراه بوضوح ـ فضلاً عن أن يفهمه ـ من موقعه "**تحت**" قرب أسفل السلم الاجتماعى، أو عند أطراف حلبة الصراع على الكعكة الاجتماعية، الكاشفة وحدها للملعب واللعب وقوانينه ومواقع كل لاعب، ولكنها الدعائم التى تتحول إلى أغلاله الخاصة، إذ تعيقه عن رؤية الواقع الفعلى، الذى كلما زادت ضغوطه كلما زاد تشبثه بها، خانقاً نفسه مزيداً من الخنق بينما تروح الهوة تتضاعف بين الواقع وما يجب أن يكون عليه، فتصبح فى آن واحد عزاءه وعقابه الذاتى على وضعه الاجتماعى، طبيبه وجلاده، ذلك أنها هى بالذات التى تولد ـ بمعونة أحقاد التطلع إلى أعلى أو فى صراعها معها لا فرق ـ ذلك "**العنف**" المميز له، خاصة لو قرر أن يعمل مثل الأقوياء، عنف الكراهية، كراهية نفسه وكراهية العالم الذى يرغمه على اليأس من الصلح معها إلى الأبد.

القسوة عنصر لا مفر منه فى حياة الأسرة البرجوازية الصغيرة كلما نزلت بالذات إلى شرائحها الأدنى، وليست "**الحاجة**" هى أخطر أشكالها، فهناك ما هو أخبث، التزمت الذى يطلب منه تحقيق تماسك الأسرة ـ بديلاً عن الحب السلس بين أفرادها، فى مواجهة مخاوف لا حصر لها من العالم الخارجى ـ حقيقية ومتوهمة، وحيث يكون العيش محكوماً بالضرورات تكون الأحاسيس المرهفة ترفاً يثير الهزء أو الاستضعاف. وبقدر ما تكون التربية مغلقة ـ حماية من العالم الخارجى ـ بقدر ما يكون عنف الصدمة عند مواجهته. أنت فى هذه الأسرة تتعلم الخوف قبل أى شىء آخر، من الأب المتسلط قبل ذلك العالم الخارجى غير المأمون. قائمة المحرمات والمحظورات تسبق دائماً قائمة المتع وإشباع الرغبات وتصنع قانون الحياة اليومية. والقائمة تبدأ من "**لا تلعب فى حجرة الصالون**" و"**لا تكسر لعبتك**" و"**لا تفتح**

الثلاجة بدون إذن" وتنتهى حتماً عند "**لا تجادل اسمع الكلام وانت ساكت**".
يُطلب من طفل (الأسرة البرجوازية الصغيرة) أن يسلك سلوكاً أمثل - فى ذهن الأب - لا أن يكون طفلاً. وفى مواجهة هذا القهر لا يصطدم هذا الطفل أبداً بالطبع، بل يعند للداخل، إن له ركنه الداخلى الذى يواجه به العالم الذى لا يهتم به، ركن يكوم فيه خيباته ومرات غيظه الكثيرة المكظومة، ويجتر المرارة من العالم، يستحلبها حتى أنه يستمتع فى انتقام. إنه يغلق نفسه عليها بإحكام، لا يعطى سره لأحد، فى تكتم يشى بعمق الجروح، حيث يصبح التكتم هو سر الكبرياء، كبرياء "**غير عادى**" لأن طوله بعمق إحساس المهانة. لقد سبق له أن تطلع بشغف وتهيب إلى العون، فخُيب رجاؤه بقسوة عنفها فى لا مبالاتها بالذات، لتعلمه المرة الأولى أن أحاسيسه وأسئلته والعذابات التى تؤرقه لا أهمية لها، بل حتى تافهة الشأن - إن طاقة مختزنة ومكتومة غير متحققة، وليس مقدرًا لها أن تتحقق فى الغالب، تتحول بفضل تاريخها الخاص إلى رصيد هائل للتدمير، غير أنه تدمير يستحيل أن يأخذ شكل الجبروت السافر - فى الظروف العادية. فالبرجوازى الصغير - ولا ننسى هذا- كائن "**أخلاقى**"، حتى القهر الذى تعرض له فى أسرته يرتكب بالذات باسم الأخلاق ومن ثم فلكى يقرر أن ينفجر مرة - أو يفجر مراراته - يحتاج ذريعة أخلاقية قبل ذلك - فى الظروف العادية - يكون الخجل القديم قد صار إلى جبن بفعل العجز عن التعبير الصريح عن ذات أمرضها القهر، وبينما لا يجرؤ على الكراهية المعلنة - فتسمم روحه وعلاقاته بالآخرين، ودائماً تحت شتى الذرائع الأخلاقية، يختار لنفسه - كتتويج أمثل لإذعانه للاضطهاد - صورة "**الشهيد**". يولد الاستشهاد من متعة استحلاب المرارة بديلاً عن المواجهة المؤجلة، يتحول إلى احتياج، ضرورة، فإن لم يتوافر له سبب، خلقه، وفى الظروف العادية، كثيراً ما توفره له المراة، امراته (فغالباً ما لا تتوافر للبرجوازى الصغير أكثر من واحدة) - فسواء كانت قوية شكسة أو "**طيبة**" يفلح هذا المُضطهَد العريق فى هضمها فى عالم إحباطه، يفرش

عليها إحساسه باللاقيمة الذى يحول إليه كل ما تمتلكه يداه، هو لا يصغى إليها بل يحاكمها كمستمع فاشل لشكايته، إنها لا تفهمه ولا تقدره حق قدره، ذلك القدر الذى يعادله - دون وعى - بحجم اضطهاده الطويل، هى أيضاً خيبت أمله، ومشاعره تجاهها تستقر فى النهاية - بقدر أو بآخر - على الازدراء، ذلك الشعور الذى يلاحقه تجاه نفسه. لكن فى غير الظروف العادية، بالتحديد إذا واتت فرصة، انفتحت ثغرة فى جدار القهر، مثلاً أن يمسك "سلطة"، تجد أمامك فوراً وجهه الآخر، المستبد. فإذا توافرت للاستبداد ذريعة أخلاقية، مثلاً "نضال" (أو جهاد)، ينطلق لذلك - يبدو لى - أنه ليس هناك من هو أخطر من البرجوازى الصغير، المتعلم، الخجول، الشريف، الأخلاقى إلى حد التطهر - بالذات لو قرر أن يتدخل ليعدل "مسار التاريخ".*

ومع ذلك فالبرجوازيون أيضاً يكرهون، وبعنف لا يقل عن عنف البرجوازى الصغير، وإن يكن مصقولاً ومحنكاً، ليس فيه فجاجة وغل البرجوازى الصغير، بل فيه دُربة محترفة يندر أن يدركها البرجوازى الصغير.

فأولئك الذين تربوا على أن العالم هو "**إرثهم المشروع**"، وتؤكد لهم الطرق الكثيرة الممهدة لهم دون غيرهم منذ الطفولة أيضاً صدق هذا الظن يرغمون بينما يتجاوزون سن قطف الثمار المجانية لوضعهم الاجتماعى، على نفس الاكتشاف الذى يصطدم به البرجوازى الصغير وهو يفقد براءته، وهو أن هذا العالم، إرثهم الطبيعى ذاك، إنما يسير بقوانين لعبة متوحشة، وأن امتيازاتهم الموروثة لا تقدم لهم إعفاء من المشاركة فيها، بل تسهيلات

---

* هذه الصورة بالطبع مجرد نموذج لنمط من البرجوازيين الصغار كان موجوداً فى صفوف المناضلين اليساريين فى السبعينيات، وقد توجد نماذج مشابهة الآن، ولكن التفسخ الذى لا سابق له وسط الأسر البرجوازية الصغيرة فى بلادنا الآن، قلب التزمت القديم إلى قفاه بالضبط، أى انعدام التصديق فى أى قيم على الإطلاق، ومعه ظهرت نماذج جديدة تماماً من أبناء البرجوازية الصغيرة التى كانت حصناً للمحافظة من قبل.

وحسب، فإما أن يلعبوها بصرامة القلب اللازمة، وإما أن تدوسهم تروس فردوسهم الموروث، فللفردوس ضحايا، حتى من أبنائه الموعودين به.

إنهم أولئك الذين يجنبهم آباؤهم أعباء علم الحساب منذ الطفولة فيصدقون أن اللعبة سهلة (بل وحتى محترمة!)، أن مجرد وجودهم فى القمة سيقوم بكل العمل، تماماً كما يتصور عنهم البرجوازى الصغير فيملؤه الحسد، ولو علم كل الحقيقة لفضت بكارته مرة ثانية، وهذا ما يحدث لبعضهم على أية حال، إنهم "**الناجحون**" من البرجوازيين الصغار، ومنهم من يفقد البكارة دون أن ينجح، وأولئك هم أبشع خلائق العالم الذى صنعته البرجوازية فى غفلة من الآلهة.

هؤلاء الذين اعتادوا ألا يتحملوا عبء اللعبة الخشنة، أن يجدوا من يقوم عنهم بالحساب بالنيابة، هم الغنيمة الجاهزة للبارعين فى علم الحساب، للذين تمرنوا جيداً على اللعبة وصهرتهم نيران هزائمها ومذلاتها، ويعرفون أنها حقاً لا تؤكل بالساهل، حتى هناك فى الأعالى، بل خصوصاً هناك. فيدفع أولئك "**الأنانيون الأبرياء**" من أبناء البرجوازية الكبيرة، ثمن فرط الترف ـ النفسى قبل كل شىء ـ الذى أحاط به آباؤهم، من باب الأنانية التى تميز الحب عند الأسرة البرجوازية، إذ "**تربيهم وتسمنهم**" لمن يمتطى! وحينئذ فإن كل الأسلحة المادية والمعنوية التى قدمها وضعهم الاجتماعى لدعمهم خلال نموهم، لا تمنع عنهم قدر الهشاشة.

عند هذا النوع "**الأنانى البرئ**" تبدأ رحلة المعاناة متأخرة عن أكثر البشر، فى النصف الثانى من العمر، وغالباً ما لا تنتهى أبداً، لأنهم غالباً ما لا يجرؤون على رفض قواعد اللعبة التى تنهشهم دون أن يكون لهم القياد فيها (فهذا تلزمه خبرة شرسة وغير بريئة بالذات)، لا يستطيعون قلب المائدة برمتها، فقط لأن عضلاتهم الرخوة لم تعتد الأحمال، حتى لو توافرت النية الطيبة. فمشكلتهم هى أنهم تعودوا أن يأخذوا الطيبات من كل وضع دون أن يضطروا للقتال، دون أن تعلمهم الحياة، أو الأهل، أن لكل وضع ثمناً

يدفع بأوان، وأن الناس يدفعـون هذا الثـمن من لحـمـهم الحىّ فى كل الطبقات، حتى تلك الوارثة ملكوتنا. إنهم لا يستطيعون أن يسلّموا بأن الحياة التى دللتهم حقاً قاسية، حتى "عليهم"، هم زهر الحياة، البرجوازية. فتبقى سيماهم تحمل طويلاً علائم الدهشة، لبراءة غير مدفوعة الثمن كى تدعى نبلاً، قبل أن تتحول مع الزمن القاسى إلى قناع يلحق بمستلزمات التعاملات البرجوازية، يغطى قبح الهزيمة، هزيمة هذا النوع من البراءة.

يبدو الانتقال لوضع آخر إذن "صعباً" ومنهكاً، فالظروف خارج فردوسهم ليست الحلف فى الواقع، على الأقل هنا توجد ملذات وترف، يخففان من وقع النزيف الذى يسحب الإرادة والحياة والروح منهم، وحتى الكبرياء الإنسانى، فيفتقدونها لا لعنف التحدى، بل بفعل الكسل، وتغدو هى الثمن الذى يدفعونه (حيث لا يغنى كل هذا الخوف من الدفع) للاحتفاظ بتلك الوسائد الناعمة التى ظنوا ذات يوم أنها اتفه محتويات العالم الذى يمتلكونه (موجودة هكذا، بحكم طبيعة الأمور)، مجرد مقدمة للآتى. وبهذا "الاختيار" المحروم من شرف الاختيار، تحدد تلك الأشياء التى أصبحت المقابل الفعلى الوحيد لتضحيتهم الباهظة، هويتهم إلى الأبد، فتغدو الممتلكات ـ غير المهمة فيما يتظاهرون ـ جزءاً أساسياً من كيانهم. ومن هنا يولد التواطؤ بينهم وبين جلاديهم، الذين يساعدونهم ـ دون تأخير ـ على "النسيان"، نسيان التناقض الذى يمزق وجودهم ذاته، بين ما كان مشروع إنسان وما أصبح يدمره بترياق كل الأوجاع هناك، اللذة والترف، تفاحة الفردوس البرجوازى المشتهاة، وراية انحطاطه، آخر علامات الطريق الذى قطعته طبقة فقدت القدرة على الحلم ولم يعد لديها ما تلهمه، أو بالأحرى تبيعه، سوى اللذة حتى وإن غالت فى قسوة أحكامها "الأخلاقية" على العاهرات مع أن لهن عليها ميزة، فهن لا يبعن أخلاقاً، للآخرين. ■

الفصل الثالث

المثقف عاشقاً

أهوى الهوى وهمس الهوى فى العيون

وبسمة المغرم، ودمعه الحنون

وزلزلات الحب نهد الصبا

أكون أنا المحبوب أو لا أكون

"صلاح جاهين"

يسلك المثقف فى علاقته بالمرأة كبرجوازى كبير : أى كداعر، ويشعر ويفكر تجاهها كبرجوازى صغير : أى كمحافظ متورط فى المحافظة، ويضيف إلى ذلك من عنده عدة اكتسبها من سياحته وسط كل طبقات المجتمع دونما سلاح يستعين به فى معركة الحياة سوى شطارته، وتلك هى عدة الاحتيال فيجمع إليهما أخلاق البروليتاريا الرثة* (فالأخلاق ليست "عدماً"!) غير أننا كى نفهمه هنا، يجب أن نرجع إلى **"الأصل"** الذى يحكم سلوكه، مهما اختفى وراء تلال التبرير، للبرجوازى.

حين يتحدث البرجوازى عن الحب فإنه يعنى به "حالة"، حالة السخونة والالتهاب التى تغمر الكيان للحظات، قبل أن تروح السكرة وتأتى الفكرة، أو الحسابات.. هو عندهم إما هذا أو ذاك، وتعلمهم الخبرة أن "الحالة" عَرَضٌ يزول عاجلاً أو آجلاً وأن الباقى هو الحساب لذلك فالذين **"أنضجتهم"** تجارب الحياة منهم يرفضون تصديق ما يسمى بالحب ـ مثل أشياء أخرى كثيرة، يعاملونه بالفعل كحالة، مثل التهاب فى الحلق يسقط وجهه **"الرومانتيكى"** كوهم من أوهام الشباب، ولا يبقى للعلاقة بين الرجل والمرأة بعد أن تتبخر الرومانتيكية ويرسب "الواقع" سوى وجهين، الحسابات من جهة، والرذيلة من جهة أخرى. الحسابات تؤدى للزواج وتستمر بعده لتصونه، والرذيلة تصونه أيضاً، من أن ينفجر أو يختنق تحت وطأة الأحادية الكاذبة فيه، والأغلال الحقيقية جداً، إذ ليست مصنوعة من وهم، بل من صلبان الملكية، "الواقع" الوحيد الذى له قوة **"الحقيقة"** فى دنيا البرجوازية، الذى عنده تلتقى كل الطرق، وتفترق.

---

* البروليتاريا الرثة هى الوصف المهذب للخدم.

الزواج، أو وجه الحياة المحسوب، هو الواقع فى وجهه غير المحبب، لكن الذى لابد منه. والرذيلة، هى الواقع أيضاً، ولكن منزوعة عنه قشدة الزيف، واقع **"متحرر"** من الاضطرار للكذب، واقع علاقة الرجل بالمرأة عند البرجوازية حين يخلع الأقنعة، فهو إذن القبح مصفى بلا شائبة وهو أيضاً الابتذال بلا مقدمات تتملق أو عواطف توهم بلا إنسانية أو إدعاء بها على الأصح.

يبدو الجنس البرجوازى غير مشبع فى الزواج لأنه **"محترم"** - أى منافق - والاحترام ضرورى مع ذلك، أو لأنه أحادى، مع أن البرجوازى هو أشرس المدافعين عن الأحادية **"فى الزواج"**، عن كل حق، بالطبع إذ كيف سيميز الورثة! فيصبح البديل الوحيد **"الواقعى"** لمتعة الزواج المخصية هو الدعارة (وإن تكن هذه فى العادة تحسب على المرأة، بينما تحسب للرجل - هى نفسها - غزواً). الدعارة، هى المرادف الوحيد الذى يعرفه، بل الذى يقدر دماغ البرجوازى (وفى ذيله البرجوازى الصغير) على تخيله **"للحرية"** وإن تكن هى أيضاً هنا مخصية، ولو فقط لأنها مسروقة، ولكن هذا ليس بالسبب الوحيد ولا حتى الأهم.

فحين تتراجع الموجات الأخيرة للنشوة يطل برأسه مرة أخرى مثل كرة الماء - ويااللغرابة - وجه الملكية! لم يسقط فى بحر الغرام ولا بدلت الحياة - أى حياة - سمته الشمعى، المحايد إزاء البشر. يأتى هنا فى معقل الحرية **"السرى"**، الذى لا تربط طرفيه وشائج الملكية أو أغلالها، ولا التمرد بطبيعة الحال، بل **"التواطؤ"** فى صورة الاستغلال المتبادل بين الرجل والمرأة. والصيغة المعتمدة المعروفة، أو النسخة الأصلية التى تتفرع عنها نسخ كثيرة ومعقدة، كثرة وتعقيد أنماط الاستغلال المتراكمة خبرتها فى تاريخ العلاقات البرجوازية، هى: الرجل ينفق والمرأة تعطى اللذة وتبدد الملل، فتشتغل علاوة على ذلك مهرجة، إذ **"يجب"** أن تكون مسلية لتريحه من الحسابات التى هدت كاهله طوال النهار، وإلا فلماذا يرهق نفسه طوال النهار إن لم يكن

لأجل أن ينفق ويتسلى. وتقوم هى بدورها، ويتحدد حجم الإنفاق بقيمتها الاجتماعية. المرأة "**المحترمة**" تتزوج رجلاً محترماً لتمتلكه "**بمرافقه**". فإن لم تفلح استغلته فى الوقت الضائع، وأحياناً تفعل ذلك تبديداً للملل الزوجى، تحن للحب فتبحث عنه، غير أنها اعتادت أن يكون لأنوثتها مقابل، مجرد واقعة الأنوثة تعطيها الحق فى مقابل (ومن المشكوك فيه أن تكون إحداهن قد سألت نفسها مرة لماذا؟)، ثم إن الحب أيضاً يحتاج إلى نفقات، وإلا قتله الفقر كما يقول مثلهم الشائع، ليس دونما مسوغ. ومهما بلغت علاقات الرجل بالمرأة فى دنيا البرجوازية حتى من "**رقى**"، لا تستطيع أن تفلت من إحدى هاتين الصيغتين، فقوة قانونهما خارج إرادة كل الأطراف، ومن ينسه يلق مصيراً قاسياً، فعدالة البرجوازية لا تحمى المغفلين.

وواضح أن "**حرية الاختيار**" الوحيدة التى مورست هنا - إن جاز هذا التعبير - هى حرية اختيار "**السلعة**" من جانب و"**الزبون**" من الجانب الآخر، فإذا كان هذا النوع من العلاقة يسمح بأن يكون الجنس هو موضوعه المشترك بين طرفيه، فإنه يستحيل أن يتسع للحب فى نفس المقام لسبب وجيه، وهو أن العلاقة بين البائع والشارى هى بحكم التعريف علاقة صراع، بل "غش" إن أمكن. وهكذا حين تختفى قوانين الملكية التى تقف بين طرفى الحب البرجوازى فتمنع الحب أن يكون شخصياً (أى حباً)، تطلع قوانين "**السـوق**" لتؤدى نفس الغرض من الناحية الأخرى. زواج أم رذيلة، تتعدد الأسباب والموت واحد!

الموت قدر الحب البرجوازى

ويبقى الجنس غيرمشبع! لا تعود الأجواء الباذخة تكفى لخلق المتعة الهاربة، فتداوى - كالعادة - بالتى كانت هى الداء: الإفراط، التعددية، التعاملات الشاذة، وكل صور الإغراب فى المكان والظروف والعلاقة ذاتها،

ولا فـائدة، لا شـىء يعدل تـهافت البـرجوازية على الجنس قـدر عـجـزها عن الاستمتاع به!

ولكن هذا يحدث بعد أن يكون قد انقضى "شرخ الشباب"، وسقطت فى الطريق أوهام كثيـرة كانت ذات يوم أحـلاماً، ومنهـا الحب الذى لم يبق منه بعد صراعات مـريرة ما يجمع الرجل بالمرأة سوى متعة لا تعرف الشخصين المجتمعين عليها، وأصبح الجنس هو الواقع الجدير بالاعتراف فى علاقتهما، وهذه أقصى مـا يُرجى منها هو طرد السأم مؤقتاً، فالسأم ـ قرين عـلاقـة "التسلية" بين الرجل والمرأة ـ هو المحطة الأخيرة للواقعية البـرجوازية فى الحب، التى فيها يتحول الجنس نفسه ـ الذى سبق وضمر إليه الحب ـ إلى كابوس لا بشـر يسكنونه، اضمحلت فيـه مـلامح الحب والمحبين فلم يبق من الجـمـيع إلا ذلك الإيقـاع الرتيب، المروع الذى التـقطه الشـاعـر صـلاح عبدالصبور: "دبيب فخذ امرأة ما بين إليتى رجل" قبل هذه المحطة الأخيرة يقع البرجوازيون فى الحب أيضاً.

يقال إن القبائل الأفريقية كانت تعتقد أن الصائد حين يقتل حيواناً، يسيطر عليه أخيراً ويتملك خصائصه، مستمداً منها قوى جديدة. كذلك الحب عند البرجوازية، هو فعل صيد، فإخضاع وسيطرة، ثم قتل.

ولكنك حين تقتل إنساناً لا تنقل إليك قوى جديدة، بل يسود صمت لا نفـاذ إليـه، فلقـد هوى جـزء من ذاتك عـينهـا، تلك العـزيزة الأثيـرة على البرجوازى دون منازع. لقد كان لإتمام الصيـد الناجح شـرط، هو الا تلتقى عينا الصياد بالنظرة الأخيرة للحيوان المفارق للحياة وإلا لحقته لعنة النظرة المحملة بالعذاب واللوم بحكم لا يرد بالموت، ولكن القضاء هنا ينفـذ دونما حاجة لتلاقى العيون، فيأتى السداد ـ على غير عادة البرجوازى ورغم إرادته ـ دون تأجيل، فورياً. ففى قلب الصراع على وضع الصائد والفريسة يستوى مصير الأحبة.

كل الطرق عند البرجوازية تؤدى إلى "الذات" ـ حتى الحب، وكل الطرق

تمر بالصراع من أجل تأكيد الذات على حساب الآخرين ـ حتى المحبوب. والهدف الأعلى للحياة هو المتعة مطروحاً منها أى عناء، وخاصة عبء المشاركة ـ حتى ولو للمحبوب. وكما تصنع هذه "**المثل العليا**" البرجوازية ـ وبصرامة ـ الحدود الفعلية لعالم البرجوازيين فى علاقته بعوالم البشر الآخرين، تحدد ـ بنفس الصرامة ـ الفحوى والمسار، وأيضاً المنتهى فى علاقات الحب فيما بينهم.

تبدأ الحكاية ـ مثل كل المحبين ـ بالمتعة، ولكن المحب البرجوازى لا يريد من الحب سوى متعته، مع أن وجود إنسان آخر طرفاً فى الحكاية يعنى بداهة أن الأمر يستحيل أن يقف عند هذا الحد، لذلك تبدأ المشاكل بالضبط عندما تدخل الحكاية فى الجد ولكن ما الذى يضطر إلى الجد (ما دمنا نتحدث عن الحب لا "**الزواج**")، بالوسع استحلاب المتعة فى المساحة السابقة على أى تقارب جدى، ولذلك فالحب هنا يستبعد المعرفة الحقيقية، والحب هنا بالضرورة لعبة. الحب هنا أشبه بالعادة السرية، فالمهم فيه ليس الشخص الذى يُفترض أنه موضوع هذا الحب، بل "**الحالة**" التى تضع فيها محبنا البرجوازى، "**الإثارة**" التى يقدر الآخر على إشعالها فيه، والإثارة حيث إنها خارج كل المنابع الحقيقية فى علاقة حقيقية، هى دائماً بطبيعتها ذاتها "**تكنيك**"، العامل الفاصل فيها لا يتصل كثيراً بالخصائص الشخصية لأى من الحبيبين، بل "**بمهارته**"، قدرته على استدراج الآخر، ثم ترويضه ومفاجئته، وأيضاً استرضائه "**بجزرة**" فى التوقيت المناسب، فالتوقيت هنا مهم ـ كما هو فى كل لعبة مصقولة، وكذلك التفاصيل، تفاصيل لا تلعب فيها المعرفة الناشئة دور التقريب بين الحبيبين، بل اقتناص مواطن الضعف لإحراز السيطرة ـ فالضعف فى المثل العليا البرجوازية ليس سمة إنسانية، بل "**نقيصة**" لا تغتفر. ليست المعرفة هنا هى سبيل الحب كما كان الحال قبل حلول عوالم البرجوازية ومُثلها فى "**قيادة**" المجتمع، بل العكس بالضبط، "**الاغتراب**" فالطرف الأقوى هو ذلك الذى لم يعرفه بعد الطرف الآخر بما يكفى كى يمتلك مفاتيحه ـ ففى هذه المساحة من الغموض بالذات تكمن

قدرته على المناورة، فلو امتلكها الآخر ضاع هذا، إذ تصبح كل ردود الفعل معروفة سلفاً ويمكن اللعب بها وبصاحبها، حينئذ لا يبقى شيء مثير، فتفقد العلاقة مبررها الوحيد للوجود، لهذا يكتسب الحفاظ على "**الصــــورة**" ـ وإخفاء الحقيقة ـ دوراً محورياً فى هذه اللعبة. ليست المعرفة فعل تواصل، بل فعل تملك وتمكين منه، وما يمتلك عند البرجوازية يفقد قيمته، حينئذ لا يعامل بحب ما قد أضاف للإنسان جديداً "اغتناء"، بل يعامل بإهمال من لم يتعب فيه، فقد "اقــتناه"، ومن ثم فقد تم استهلاكه (وما زال الكلام عن الحب، لا الزواج، الذى يمثل الاقتناء فيه قيمته الأساسية، ومن ثم فهو بدوره يستبعد حديث الحب) لذلك فالحبيب هنا هو ذلك الذى لم يتم الاستحواذ عليه بعد، ومرحلة الحب هى مرحلة الصراع على مركز السيطرة، تلك التى لم يتحدد فيها بعد من الذى سيتمكن من الآخر، "سيهزمه"، ونقطة الذروة هى بداية العد التنازلى.

وباكتمال المعرفة وجب القتل، وفى الأصل لا حاجة له إذ يموت الحب من تلقاء نفسه، لولا الرغبة فى استحلاب بقية من إثارة فى القصة المنتهية، وفى هذه المرحلة تكون قد اعتصرت كل مصادر الإثارة فى العلاقة، إلا واحداً يستبقى للخاتمة، التعذيب. لذلك تنتهى لعبة السيطرة هذه عند النموذج المتطرف "**محترف الإغواء**" إلى الرغبة فى التدمير، وخلال ذلك إلى كراهية حقيقية لفريسته، إنه لا يعشق حقاً إلا ذلك القادر على سحقه! وهذا الذى يتورط تدريجياً فى احتقار عميق للآخرين عبر احتقاره المضطرد للجنس الآخر ـ ينتهى به الأمر بألا يحترم سوى من يشعره بحشريته، حينئذ يقتنع أنه (الآخر) حقاً "**يعرفه**".

لهذا لا يحمل الحب للمحبين البرجوازيين تجربة إنسانية "حقيقية" ـ فالإنسانى مستبعد أصلاً ـ أى لا تحمل بالذات ذلك الذى يبحث عنه الواحد منهم بكل تلك اللهفة "**الجديد**" ولتجديد المتعة إذن ليس أمامه سبيل آخر سوى تكرار اللعبة. وأحياناً ما يسعد الحظ صاحبنا البرجوازى "**فينهزم**"

ويحب، حينئذ الويل له، فهذا ليس له سوى معنى واحد في الحب البرجوازى، أنه قد تقرر له دور الفريسة. يختزل الحب إلى لعبة تافهة، بل مريضة، وحينئذ ما أسهل **"التحرر من الوهم"** عن الحب! ذلك الذى لم يعرفه فعلاً فى أى يوم، أكثر مما يعرفه مراهق. لذلك فإن قدر البرجوازى هو عدم النضج العاطفى، فهذا شأنه شأن أية ثمرة لتجربة حقيقية يتطلب شرطاً عصياً على البرجوازى، يتطلب بجانب الأخذ عطاء.

وبعد **"التحرر من الأوهام"** لا يبقى للبرجوازى سوى مصير من اثنين، إما أن يتحول إلى محترف لهذه اللعبة التى تقل أوهامه عنها ومعها المتعة المستمدة منها مع الزمن، فيغزوه خواء معتم بنفس القوة والحتمية التى **"يتحرر بها من الوهم"**، ومعه ينصاع صاحبنا فى القالب القديم المكرور إلى حد الملل، فى النموذج السادو - مازوكى - وليست السادية فى الواقع - وهى قرين المازوكية اللصيق - سوى عجز عاطفى مطبق، وتسليم نهائى به. إنها البرهان على أن الخواء العاطفى ليس مجرد "عدم" إنه مباشرة شر، والخاوى وجدانياً ليس مجرد إنسان **"مفرغ"** من العاطفة، بل إنه قوة عنف وكراهية، وأن العجز لا يبقى مجرد عجز. والقسوة هنا عملية تعويضية عن البحث الفاشل، المحبط عن الإشباع، يعمق بها صاحبها الجرح بلا كلل وهو يعيد الدورة الشريرة فى لذة لا تقاوم، يدفعها يأس جازم مبرم من التواصل - وتقدم هذه اللذة المريضة بديلاً زائفاً للإشباع الذى تطرده هى بالذات، لتجعل صاحبها مثل مدمن العادة السرية عاجزاً نهائياً عن الحصول على الإشباع من التجربة الحقيقية وكلما تقدم به العجز تقدمت القسوة وزاد من فنونها علها تقضى على ملل التكرار - فأكثر الألعاب عبقرية تعتمد بالذات على التكرار - حتى يقضى التشوه على الملامح الإنسانية لصاحبها.

أو، تنتهى حكمته إلى الطريق الواقعى المألوف، الزواج، بغض النظر عن الحب طبعاً - ولكن هيهات، فالتطور الزواجى لتلك اللعبة - الجدية جداً فى الواقع لأنها تستمد خصائصها من أعمق قوانين علاقة البرجوازية وأبنائها

بالحياة والآخرين ـ يجعل من الزوج البرجوازى فى وضع من اثنين يستحيل أن تجد لهما ثالثاً، إما راكباً أو مركوباً. ولا يفلح تنظيم **"الحقوق والواجبات"** البرجوازى فى تغيير هذا الواقع قيد شعرة، فكما أن الحقوق والواجبات فى العلاقات الشخصية هى بنت المجتمع البرجوازى بقدر ما تفترض الأنانية أساساً للعلاقات فتنظمها، يتخطى أساسها العميق هذا كل القوانين ـ كما فى كل الأمور الأخرى فى عالمها ويصنع المنطق الحقيقى غير المعلن للعلاقات بين البشر حتى فى الحب.

ولسوف يظل الحب حلماً عصياً إلى أن ينقضى منطق الحيازة فى العلاقة بين الرجل والمرأة، وحقوق التملك وواجباته، ومستلزماته من قسر عبودى جبان فى علاقات تموت لو تنفست الحرية، لن يصبح الحب حباً قبل أن يصبح مرجعه الوحيد هو المسؤلية الشخصية بين أناس أحرار من حقوق القسر الجبانة فى العلاقات الشخصية. فإن بدا هذا "حلماً" غير واقعى للواقعيين، فإن الواقع الزرى لعلاقات الحب والزواج فى عالم تسوده نظرة البرجوازية وقوانينها، يشهد بالحاجة لمثل هذا الحلم، فهو ليس سوى دليل آخر خطير الأهمية والدلالة على أن الحياة فى عالمنا هذا لم تعد سوى تنظيم آخر للعبودية فى العلاقات بين البشر، حتى الشخصية، وأنهم باتوا بحاجة لحلم جديد بالتحرر.

تعامل البرجوازية الحياة ـ وتعلم فى أثرها البرجوازية الصغيرة ـ كمعركة شعارها **"البقاء للأقوى"** وتدفع الثمن فى أكثر معاقلها خصوصية. لقد كان الصياد البدائى يدرك بفلسفته البدائية أن فعل القتل ينطوى على خرق للوحدة التى تجمعه بالكائنات، فعامله بما يستحق من الرهبة، لكن البرجوازية التى جاءت لتنتهك كل المبادئ التى صنعها الجنس البشرى فى رحلته الطويلة باسم **"الفرد"** حين جعلت من دوس الآخرين مبدأ للوجود، أكملت دائرتها وأوصلت الخازوق فى مكانه المناسب بالضبط، وكالعادة اقتعدت القمة.

فاصل في البراءة

في علاقة المثقف (المصرى) بالمرأة، "يفرجنا" التاريخ على إحدى ألعابه السحرية، حيث تلعب بالأحياء أشباح تقيم أجسادها في بقعة أخرى. فالشروط المادية التى كانت تقوم عليها علاقة الاستغلال بين الرجل والمرأة البرجوازيين • المال من جانبه والقيمة الاجتماعية من جانبها) تختفى هنا، بينما يبقى الاستغلال(!) وقد انتقل من صيغة البيع والشراء (الرأسمالية) التى تحكمها قوانين على كل حال، حتى ولو كانت مجحفة، إلى لعبة خارج القانون، لعبة من تلك الألعاب المباح فيها استخدام كل المحظورات، وفيصلها الوحيد هو النجاح، لعبة نصب فى الواقع (أحد الأعراض الجانبية للرأسمالية).

فالفتاة التى تواعد مثقفاً على اللقاء لا تمنى نفسها بنزهة فاخرة، أو حتى غير فاخرة، وإنما تتوجه إلى مقهى كئيب يشترى لها فيه فتاها المثقف كوباً من الشاى المغلى المر، ويبيعها أحلاماً "**تقدمية**" لا تكلفه سوى أرخص بضاعته، الكلام. كلام لم يعد يعرف هو نفسه أين استقر موقعه الأخير من روحه، عن عدالة تتطلع إليها روح فتاة برجوازية صغيرة تحاصرها كل صنوف القهر، وأحياناً المهانة، أو فتاة من بنات البرجوازية الكبيرة تجرب التمرد (وحبذا لو كانت كذلك، ففى طعمهن كل التكلفة التى أنفقت على تنشئتهن).

يتكلم عن العدالة وزيف قيم المجتمع وأشياء أخرى كثيرة، ولكن أهمها، بل الهدف الأصلى منها فى الواقع، هو "**الحب الحر**" الذى لا يحتاج أموالاً لممارسته ولا مسئوليات من أى نوع، حب على المسئولية الشخصية، ومن ثم لا يوجد من يعاقب عليه، لذلك فإن رجلنا المقدام يندفع فيه بثبات يعوزه أحياناً فى مواقف أخرى ليست أقل أهمية! ولكن "**المسئولية الشخصية**" كما يتضح فى آخر القصة ـ القصيرة غالباً ـ يتحملها من الناحية العاطفية

طرف واحد لا اثنان كما اتفق، ببساطة، لأن المسئولية الشخصية هذه أسطورة فى مجتمعات عمودها الفقرى الثانى هو تدخلها فى الشخصى بالذات (متجلياً فى أمور الزواج والطلاق التى يفصل فيها المجتمع ممثلاً فى الدولة رأساً ولا أقل). لا يوجد فى الواقع سوى المسئولية الاجتماعية، والمجتمع لا يحاسب ـ فى الواقع ـ سوى من "يصمون" بمسئوليتهم عن هذه العلاقة الشخصية ـ وعند الدولة وعدا ذلك فإن حديث المسئولية الشخصية مجاله الوحيد الواقعى هو تفسير خيبة شخص ما فى الجلسات الخاصة، وهذه الأخيرة، من حيث هى ممثل السلطة المعنوية للمجتمع، لا يقع حسابها (عفوا بل إدانتها المضمونة) إلا على طرف واحد إنه ذلك الطرف الذى تفلح "**المسئولية الشخصية**" دائما، فى كل مرة، وبمعجزة يختص بها مثقفو شرقنا العربى، فى تحويله إلى مومس! أو على الأقل فإن ذلك هو الرأى المؤكد (سلفاً) للحبيب الأول. أما هو، فإن مسئوليته تتمخض فى النهاية عن إنجاز آخر لفحولته، فيتيه برجولته (حقاً لا هزلاً). لقد كان فى القيم "**المتخلفة**" تصور إنسانى رفيع للرجولة، لا يرجع للتخلف بل لكل الإرث الإنسانى الذى انطوت عليه رحلة البشرية الباحثة عن جدارتها، فأسقط هؤلاء النبل من الرجولة، واحتفظوا بالتخلف.

لقد أسفر الحب الحر عن حب مجانى، بل رخيص فى الواقع، ولكن ماذا فى ذلك! فكرة أخرى من الأفكار الكبرى فى تاريخ البشرية ما تزال تدمى البشر محاولاتهم تحقيقها، ابتذلت على مقهى المثقف المصرى، إنها ليست أكثر كرامة مما ابتذل غيرها، ولكنها أيضاً ليست أقل، شاءوا أم أبوا، فهى أحد الأركان المكينة لخوائهم الفسيح.. لم يعف الموت فيهم حتى ذلك الجزء الخاص والحميم من الإنسان، من صميم هويته، وكم يتباهون بهذه "**الواقعية**".

يطلب المثقف، بوصفه رجلاً، البراءة فى المرأة، ولكن البراءة مخصوماً منها إدراك من أى نوع لما يجرى فى الدنيا من حولها ـ وتلك على الأقل ميزة

"غير البريئات" غالباً - لا تعدو كثيراً البلاهة وهنا يعتبر صاحبنا استغلالها، ببساطة، حقه. ومنطقه هو أنها حين قبلت الاستغلال، استحقته! لأن براءتها - وكما ثبت بالدليل القاطع - غير متينة، ثم إن البلهاء لا تستطيع أن تستوعب "**تعقيد**" روحه الغالية، فكيف يسلمها نفسه الغالية ذاتها؟ يكفيها إذن جسده الغالى فإذا اتضح أن البلهاء قد صدقت إلى حد الرغبة فى التمرد حقاً، يقوم - هو بالذات - "**بتعقيلها**" باعتباره رومانتيكياً سابقاً.

وهناك أمر جانبى هنا ولكنه هام جداً مع ذلك، وهو أن المثقفين المهزومين يعشقون "**تحطيم الأصنام**" من كل نوع: ناجحون، مشهورون، مبدعون. يحبون ذلك إلى حد أن العجز عنه فى حالة من الحالات (ولتكن عملاً فنياً لا مأخذ عليه) يصيبهم بالإحباط، إن "**البرهنة**" على أن "**الكل باطل**" احتياج لا ينتهى عندهم، تماماً مثل القربة المقطوعة. ويصدق هذا أيضاً على صنف النساء اللاتى يجب أن يبرهن دائماً على ما كانوا يعرفونه منذ البداية بخبرتهم العالية، وهو أنهن لا يصلحن إلا لأمر من اثنين: إما زوجة بلهاء (غير جديرة بهم) أو عاهرة لئيمة (غير جديرة بهم أيضاً)، وعدا ذلك فهى أسطورة ولا أقل! فمن المفارقات غير المدهشة بتاتاً فى علاقة المثقف (المصرى) بالمرأة أنه رومانسى لا شفاء له حين يحلم بها، إنها كما تتجلى أحياناً فى أعمالهم الأدبية إلهة صغيرة، تمسح الجراح وتعوض عن الهزائم والخيبات - وما أكثرها - وتحتضن وتحتوى، وتعطى الأمان المفقود فى العالم كله، وهى فضلاً عن ذلك - بالطبع - جميلة دائماً، عيونها سود أو عسلية أو خضر ولكنها دائماً واسعة، ولها ثديان مستوردان من أوربا تحديداً، فهما مكوران إسفنجيان متماسكان يثبان كالكرة (يكاد هذا الوصف أن يكون مكرراً عند القصاصين). ومع ذلك فالإلهة برغم مقامها العالى لا تزيد على المومس أو الزوجة الخرقاء فردية بمقدار ذرة واحدة، إنها نمط أيديولوچى مثلهما تماماً، يسجن فى ملامحه الثابتة بنفس القدر، وإذ يتم تجديده بإصرار يقفل الثالوث الذى يعيد إنتاج المومس والزوجة بنفس الإصرار أيضاً، فهو يحاصر المرأة الواقعية بتوقعات وتصنيفات عليها أن

تندرج فى أحدها، وسوف ترغم على أن تندرج فى إحدها شاءت أم أبت. تبقى فظاظة الواقع وأيضاً فظاظة الحلم، دون أن تقيم الجسر بينهما أبداً تجربة حقيقية، بل إن التجارب قد تتوالى إلى حد الإفراط دون أن تغنى، فهى لا تقطع الطريق ذهاباً وإياباً بين شخصين، وإنما تقطع مساراً ثابتاً داخل المثقف وحده، بين حلمه القاسى بالمرأة و"**سقوطها**" منه إلى واقع يظل أبداً حبيس دائرة المحرمات وانتهاكها (رغم كل الادعاءات) أو الالتزام بها المطّمئن ولكن الممل.

يقيّم المثقف "**أخلاق**" المرأة بنفس المعيار السائد - دون حتى أن تخطر بباله هذه الحقيقة - حين يجعلها مرادفاً لتصرفاتها الجنسية خاصة، وعدا ذلك يمكنها أن تكون من الحيوانات المفترسة فهذا هو ما لا يستنكره المجتمع ولا يعاقب عليه، لذلك فإن هذا بعينه هو الانتقام الرهيب الذى توقعه المرأة على الرجال فى أحيان كثيرة جداً، بما فى ذلك المثقفين، إنها تحقق نبوءتهم فيها، تجعل منهم فرائسها، والمرأة التى تفلح فى ذلك هى على وجه التحديد "**غير المتمردة**"، إنها تلك "**الواقعية**"، تماماً مثلهم، يدرب المجتمع - بنفسه - المرأة على الالتفاف على أخلاقياته المتناسقة المحكمة والمنطقية فقط بقدر ما هى أفكار مسبقة نرضعها من الطفولة، شأن كثير غيرها من الأفكار التى يثقبها الواقع يوماً بعد يوم، إلى أن تغدو هذه الازدواجية ذاتها منطقية، "**طبيعية**". تتعلم من القهر اللؤم، ومن الإهانة الشراسة والكره أيضاً، وتتسلح بهم جميعاً لتنتصر فى معركة البقاء للأشطر، التى هى المعركة الدائرة حقاً فى الواقع (لا الصراع بين الفضيلة والرذيلة!). وإذ يعاملها المجتمع - ممثلا - فى الرجال خصوصاً - ككائن أحقر، عاجز عن النبل، يعلمها السفالة. تتعلم احتقار "**الأضعف**"، الأكثر خجلاً وأقل اقتحامية ووقاحة، الأقل قدرة على الإيذاء - الأكثر براءة! تتعلم كيف ترى فى هذا الأخير، وكيف تصنع منه، فريسة. ولكن أليس هذا هو "**القانون**"، "**العقد الاجتماعى**" الحقيقى فى المجتمع بأسره.

(ويواصل العبيد خلق العبيد ـ غير القادرين بالذات على مواجهة العالم عارين إلا من مسؤوليتهم الشخصية ـ تنتقل العبودية بينهم، بالخبرة المسمومة، وكأنها عدوى يجرى إنتاجها على نحو منظم، وواسع النطاق).

فما بالك، لو أن هذا التدريب جاء على أيدى المثقفين! أنت إذن أمام نوع من النساء هو الأخطر على وجه البسيطة! يقول ت. س. إليوت فى عمل من أعماله تقريباً، إن النساء يرفعن من قيمة نصفهن الأعلى، ليزدن به قيمة نصفهن الأسفل! ولكن ما لم يقله أو لم يعرفه ربما هو أن أولئك النساء بالقطع، قد تعلمن الحياة فى مدرسة مثقفين، فهم الوحيدون القادرون على أن يتكلموا عن أحر "**القضايا**" وعيونهم على ذلك النصف الأسفل، ولكن المجتمع لا يطلب الخجل إلا من النساء. ■

ملحق

وثائق شخصية من الدفاتر

وثيقة (١)

القاهرة فى ١٥ ديسمبر ١٩٨٨

عزيزى (....)

باكتبلك وأنا مش متأكدة إنى حاكمل الجواب ده،لأنى مش متأكدة إنى قادرة على الكتابة دلوقتى، بس فكرة الكتابة عن نفسى لنفسى بدت لى قبيحة قوى ـ بينما من فترة تزيد على السنة دلوقتى وأنا حاسة إن فيه إحتياج لوقفه مع النفس، لكن كنت نافرة من إنى أعملها، أولاً لأن لعبة تأمل الذات اللى علموها لى المثقفين من بدرى، وبعدين فى مرحلة السياسة تحولت إلى نوع من العادة السرية بقيت باشمئز منها وأحس إنها ترف ولعب أطفال حاسة لسه إنها مركز العالم.. بقية الأسباب بتدور بشكل أو بآخر حوالين نفس السبب، زى إن العلاقة بعالم واقعى هى اللى شفتنى، مش تأمل الذات.. إلخ.

يمكن حكاية الطرد من الشغل حطتنى رغم أنفى قدام فاصل زمنى ومرحلة كاملة مهمة كان بيمثلها الشغل بالنسبة لى والقلق اللى بيُحَّرك فى صدرى من سنة، بقى فيه وقت مناسب لمواجهته وجهاً لوجه، والعقد اللى سبتها نايمة وأنا باحاول اكتشف العالم من غير خوف منها، وأقول بشكل مبهم إنى تجاوزت جزء مهم منها، لكن مش قادرة أتطلع بجرأة وأقول كام فاضل وشكله إيه.. كل ده ربما يكون محتاج كشف حساب، مش عشان أبلغ (الكمال لله وحده) لكن عشان يلزمنى أعرف طريق أمشى فيه وأبقى عارفه أنا باعمل إيه، كفاية كدة عليا سايبه نفسى **"للحياة"** تمشينى..

بس المشكلة الحقيقية فى الكتابة دلوقتى، إنى مفتقره لما يكفى من العاطفة عشان اكتب، لما بتكتب بعاطفة بيتفجر الاكتشاف ويسبق الفكرة المجردة بالحدس الفذ ـ الموجود عند كل إنسان لو عرف يلقطه، فى

اللحظات دى ما بتفكرش - وما تلحقش تفكر - حتى فى شكل التعبير المنهمر على السطور فى كلمات قابضة على الحقيقة الحية بتسطع فيها زى الجوهرة.. حقيقة ماكنتش متعرف عليها أبداً قبل ما تطلع متبلورة زى النبوءة!

فى الفترة الصغيرة اللى ازدهرت جوايا مشاعر ناحية (....) - اللى اضطريت أقتلها قتل - كانت المشاعر العذبة الحنونة وهى بتتفجر بعد موات طويل، بتفتح معاها أبواب الاكتشاف والرؤيا الحدسية الرائعة دى لما تشف وتبصر بحده لا تعرفها فى الأوقات القاحلة، ويزدحم وجدانك بالأخيلة والأفكار الملهمة.. مع إن كل ده ما مكنيش أشوف هول القسوة اللى واقع فيها (....).. يا ترى إزاى ديستويفسكى كان قادر يشوف كل ما ينطوى عليه البشر من رقة ومن قسوة فى نفس الوقت! ده صعب قوى يا أخى (مش يمكن ده السبب فى إنى ما انفعشى كاتبة!.. إوعى تصدق دى نكته ع الماشى لكسر الرومانتيكية)..

تعرف أثناء المعركة الأخيرة فى الشغل، كنت حاسة بعنف قد إيه النوع ده من المعارك مفقر لإنسانية الواحد، وافتكرت بعنف برضه زمن السياسة! مع إنى حقيقى مش فاهمة ليه مفقر (وما يكفنيشى ما هو معروف عن التشيؤ فى معارك المناصب، إلخ.. بس إزاى يعنى!).. الشخص اللى كان بيحاربنى من النوع اللى فى وسط الوسخين نمط خاص، واحد مركّب انكسر عنده الحد النهائى للمهانه وعارف إنه مش ممكن يسترده - مع إنه حريص جداً على القناع - لكن العلامة المميزة للنوع ده هى إنه فقد القدرة على الخجل من نفسه، ولما تواتيه اللحظة يدبح بدون تردد ولا ارتباك، وفى القسوة بتاعته ظلمة يتعسر عليك إنك تعثر على ملامحه الإنسانية فيها، رغم إنه فى النور، تقدر تشوف كمية خواء إنسانى تثير الجزع.. النوع ده تلاقيه واحد فى كل عشرة من الوسخين على الأكثر، وأنا نادراً ما عرفته إلا فى روايات دستويفسكى، لكن دايماً فيه شىء بيستعصى على فهمى، بالذات

لإنه دايماً بينطوى على إمكانية لن تعرف أبداً، إذا ما اتوظفيتش فى الدناءة ها يطلع منها إيه.

وبعد(!).. النهاية الدرامية دى للتجربة اللى رفعتها فى وجه **"الرفاق"** فى شماته (وبصورة مدببة فى الكتاب المأسوف عليه) باعتبارها **"الحياة"** اللى أنقذتنى من **"قدر الغرف المقبضة"*** وضعتنى وجهاً لوجه أمام الأسئلة اللى كانت تراكمت حول إلى أى مدى قدمتلى هذه **"الحياة"** منجى من قدر العزلة عن الحياة؟.. وثانياً، وهو السؤال الحرج، بل المخيف شوية بالنسبة لى إلى أى مدى **"تجاوزت مشاكلى"** القديمة، وحليت المعضلة اللى طوحت برؤوس كثيره، معضلة العثور للحلم الرقيق على قدمين راسختين فى أرض البشر الواقعيين، العيانيين، اللى مضطرة أعترف إن لسه أذاهم بيوجعنى أكثر ما خيرهم بيدفينى! أو ـ بعيداً عن التعبيرات الشاعرية ـ هل أفلحت بعد كل الرحلة الطويلة الشاقة دى، فى أن أصبح كائن صالح للتعامل مع العالم الواقعى، دون أن يفقد إما توازنه وإما حلمه؟

بالمعنى ده، أبقى مرة ثانية، بل فى الحقيقة يمكن خامسة أو سادسة، بارجع لنقطة البدء فى البحث عن إجابة لأسئلة، راودنى وهم إنى حليتها ولقيت سكة خلاص. لكن بيحضرنى هنا اعتراضك الوجيه على المعنى المطلق فى كلمة **"شعب"**.. يعنى إيه **"حياة"** ويعنى إيه **"توازن"** ويعنى إيه **"حلم"**.. حتى الزمن بيفرق كتير فى المغزى والإجابة على الأسئلة دى، وأنا عارفة إزاى ده يصدق على تجربتى بالتحديد..

ربما يكون آن أوان أقف فيه قدام نفسى وأسألها بصراحة، عن ماذا كنت أبحث وأنا بارتبط بالشيوعية؟ كانت تعنى لى إيه بالضبط؟.. السؤال ده، اللى لما تكون اخترت فعلاً ومشيت فى طريق النضال، يبقى تافه وعديم المعنى، بالنسبة لحد زيى بيبقى على قدر من الخطورة، بالذات لأنى اعتبرت

* عنوان رواية لعبد الحكيم قاسم.

ـــ دائماً علاقتى بيها من المسلمات رغم إنى يخيل لى إنى فى مكان من نفسى سألت نفسى مرات عديدة ـ وإن يكن مش بالوضوح والمدى ده ـ وجاوبت عليه مرة فى رسالة لصديق بعبارة مؤثرة قلت فيها ما معناه، إنها كانت تضفى الانسجام على عالم لم يبدو لى أبداً عادلاً ولا منطقياً.. كانت فى الحقيقة "بديل" عن العالم الواقعى اللى كان مصدر عذاب غير مفهوم وبالتالى لا حدود له.. وربما ليست مشاكل علاقتى بالسياسة سوى مشاكل علاقتى بالعالم الواقعى عينها.. الا يذكرك الكائن اللى وقع فى الشغل بنبل وفروسية وعنترية أيضاً، فريسة لحيلة تافهة وبذيئة، بنفس النبل والعنترية اللى وقعت بهم فريسة لمهزلة بذيئة "سياسية" هوانها يتجسد فى إنها مضحكة بالذات!

على امتداد العمر، اللى بقى طويل دلوقتى، كان دايماً بيحمينى ويصونّى من السقوط، يقين بيربطنى بالبشر ـ اللى بيفزعونى وهم كائنات حية باتعامل معاها فى الحياة اليومية ـ مستمد من العلاقة مع أخطر منجزات البشرية، راساً(١).. دستويفسكى قدملى وأنا مراهقة أول يقين إن عذابى مفهوم ومبرر، ولعله كان أول صك انتماء لطفلة، شىء ما فى ذلك المحيط الهائل المسمى بالعالم يثير ذعرها.. حتى الدناءة فى الراويات دى بتثير ـ بفضل عبقرية الإنسان ـ مشاعر عذبة، بل جميلة.. بس ما كانش فيه حد يقوللى فى الوقت المناسب إن المسافة بين الجمال العبقرى ده والأصل الواقعى، ممكن تتقصف فيها الرقاب.

ويمكن من اللحظة البعيدة القديمة دى بدأت ترتسم ملامح قدرى الخاص، إن رابطتى الأكثر حقيقية بالواقع، تبقى الإيمان الصلب بأجمل ما أنتجه البشر وهم يحاولون اكتشاف حلمهم وصنعه.. نقياً، ناصعاً، ومبرأً من وساخة هؤلاء البشر أنفسهم! اللى كنت عاجزة فى العلاقة المباشرة معهم ـ بدون واسطة ـ عن تفسير لغزهم، فضلاً عن التعامل معهم، فاقدة أبسط روابط الثقة بهم.. وكإن الواقع مُصرّ على السخرية من إيمانى الحصين فى

قلاعه الخاصة، الحقيقية جداً رغم كل شىء، واللى كنت باجرى أحتمى بأحضانها من قساوته كل ما تعضنى.

لكن إلى أى مدى "الوصفة" دى ما زالت صالحة إنها تمشينى؟.. "الواقع" حكم بإنها ما عادتش كافية (ويظهر إن الواقع هو اللى له القول الفصل دائماً فى آخر المطاف) لإنى بقالى سنة بالتمام والكمال مش قادرة أقرا!! ورغم إن فضولى للمعرفة ما انتهاش، بالعكس لكن "السلام" اللى كنت مطمئنة دايماً إنى حا لاقيه فى القراية، ما عدتش قادرة أبحث عنه فيها، ومش عارفة هل السبب فى إن الصيغة دى اللى ربما تكون بتحولك إلى متأمل صرف لم تعد قابلة للاستمرار، ولو بحكم المرحلة دى من العمر؟ أم إن السبب فى الحرمان الطويل، العريق، من الدفء الإنسانى الكافى لبعث الاطمئنان والقوة فى القلب، ليجترئ على مصاعب رحلة الكشف والتمرد.. إنه جف خلاص وما عادش قادر يقتات على فتات قديمة، معظمها كان - فى الواقع - أوهام اتحطمت، كإن قدرتى على الاستمرار بعد الصدمات، كانت هى القدرة على تجديد الوهم!.. كنت دايماً باعزى نفسى بالظن بإنى اخطات السبيل لمقصدى، وأواصل البحث محملة بنفس الأوهام غير منقوصة، عن الجمال فى بشر غير اللى عرفتهم، وفى النهاية، لما باتطلع داخلى، مش لاقية غير مقبرة جماعية.

يا ترى هو ده السر ورا إحساسى الدائم، المسبق، الدفين بالعجز؟.. الإحساس بالعجز قدام النشاط السياسى، وعدم جرأتى قدام الكتابة، وحتى التدريس! والنهاردة كمان جاى يعتدى حتى على حبى القديم للقراية، معقلى الوحيد اللى مؤكد إنه متين؟.. أم إن الحكاية كلها حكاية طفلة أهلها نسيوا يعلموها تثق فى نفسها؟.. لكن دانا اللى اتعلمت الدرس البليغ، المدفوع الثمن، إن القوة والضعف رحلة ومسار، مش قدر ومش هبة. وعارفة إن حتى فى انهيارى المهول، مش بس شىء أصيل، وإنما حتى جسارة (!) لن يعرفها كثير من اللى "استمروا"، لأنه كان جواه رفض أصيل لتلصيم خرومى بحلول

مزيفة، بأسرة.. بطفل، أو حتى "**باستمرار**" يمليه العجز عن مواجهة العالم عارياً، بلا أوراق توت، بما فى ذلك ورقة توت النضال!.. ((أو "**قشة الغريق**" فى أحيان أخرى.. فيه ناس لو طرحت منها النضال - فى ظروفه التاريخية الراهنة - ما يفضلش منها حاجة تقريباً، وده لأن علاقتهم بالبشر (اللى بيناضلوا عشانهم) دخلها فساد عميق.. وبكده "**القضية**" - برغم إخلاصهم - بتتشيأ عندهم.. أنا شفت ناس استمرارها ما لوش علاقة بمشاركة البشر كبيرة، بل ربما تكون الرابطة الأكثر حقيقية "**بالنضال**" هى التعالى!))

كان بيحلو لى فى السنين الأخيرة، فى فترة هجر السياسة والاندفاع نحو "**الناس العادية**" أتصور نفسى جزء من موكب هائل للبشر، ممتد فى التاريخ، وشامل لكل من يربطهم بالحياة وبالبشر حلم لنا جميعاً، ولا يحتكره أحد ولا حزب، وبالصفة دى كنت باحس إن من حقى الانتماء للشيوعية والشيوعيين - بدون ما أناضل - وحتى أفتى فى مواقفها وتكتيكاتها.. لكن دلوقتى ابتديت أحس إن الوضع ده لو استمر طويلاً، لا يمكن أصر على الحقوق دى بدون ما اتفادى التزييف، برغم كل حسن نيتى..

تعرف أنا ظبطت نفسى فى الشهور الأخيرة باقرا عن تاريخ الحزب الشيوعى الصينى، وباشترى بنهم كتب هيجل، فى نفس الوقت اللى باهرب فيه من القراية عن القضية الفلسطينية والانتفاضة!.. أهو ده بقى الضعف اللى لا يمكن إنكاره، بس الزاوية دى ماعادتش هى اللى بتشغلنى فى الموضوع، إنما بابنى علاقتى بالحياة على أساس إيه، فين الرابطة الحقيقية بالبشر؟.. واضح إن الرابطة دى عشان تظل حقيقية لا يمكن أن تبقى أسيرة حيز "**المعرفة**" ولازم تدخل حيز "**الفعل**"، وأظن إن فى مكان ما من الحيز ده، مقتلى.. ولكن حتى من غير هروبية، لايمكنك أن تفهم حقاً دون أن تفعل (ده بقى أنا واثقه منه بالتجربة) أن توسخ يديك بالحياة اليومية بالذات، أن تكتشف فيها بالذات المعنى المطلق، لأنه من غيرها بيبقى معنى محلق، وبذلك هش..*

---

* والاكتشاف ده أصعب كثيراً مما يتخيل معظم بيناوات الماركسية.

وأنا بقى با شك إن فيه صلة وثيقة بين خوفى الهروبى ده من "**الواقع**"، وبين صدقى البيوريتانى اللى بيعجب الناس، وبين إشكالية الضعف والقوة فى شخصيتى.. البيوريتانية دى فيها حاجة ملعونة، وليست بالجمال اللى بتبدو عليه لأول وهلة، هى اللى كانت بتصدر أحكام لا تقبل النقض بالإعدام على طوابير من البشر اللى مريت بيهم فى حياتى.. بس ده كمان لأنى عاجزة عن فهمهم خايفة منهم. وعشان كده خايفة من الحياة، حتى كمعنى مطلق.. أنا عايشة الحياة ـ حقاً ـ كحدوتة من حواديت الأطفال ـ فيها الأشرار اللى لازم يدفعوا الثمن فى الآخر، وفيها الطيبين اللى باحدف نفسى عليهم، ولما يخذلونى ويظهر فيهم وجه شرير، أتخبط فى ذعر بحثاً عن معين.. ما كنتش قادرة أفهم الناس أبداً لأنى باقرب منهم وفى قلبى من الخوف ما يُعجز عن أى فهم! ولأنى فى نفس الوقت با قرب برغبة عارمة فى التسليم، تسليم نفسى كلها، وعشان كده اللى كان بيتأذى كان نفسى كلها، وحكم الإعدام اللى كنت باصدره كان "**عادل**" بالقياس لكل ما خلعته من قبل على صاحبه من قدرة بل سلطة عليا! أنا كنت با طلب من الناس الكثير اللى أنا فاقداه، بابحث عندهم عن سند يصلب الانكسار فى داخلى، وباطلب من كل قادم جديد ان يُطّيب الجرح اللى خلفته الخيبات السابقة، وبتتكفل بتجديدة الخيبات المحتومة اللاحقة.. وفى كل ده با كشف نفسى وجرحى "**بصدق بيوريتانى**" مبعثه الحقيقى الاستغاثة من جرحى ونواقصى، اللى من فرط استغراقى فيهم ما انتبهتش إن "**الآخرين**" أيضاً مجروحين ومش كاملين، زيى!.. "**الناس**" كمان، كانت بالنسبة لى مفهوم مطلق، "**الإنسان**" بالغ الجمال والكمال، اللى قادرة أسلم إنى مش قده، لكن مش قادرة أفهم ولا أسامحهم هم على إنهم مش قده!

دلوقتى بس فهمت إيه السر فى مقدار المذلة اللى نضحت فى أيام مرضى، كانت متحوشة مع كل صفعة خدتها وأنا با مد إيدى لإنسان، وباتطلعله وكلى عشم إنه حا يقوللى الكلمة السحرية اللى حا تريحنى من العذاب الماضى وتصلحنى على نفسى!.. اللى با ستغربله دلوقتى إزاى قدرت

أحتفظ بكبريائى قبل المرض وبعده، وإزاى ما اتعلمتش أكره، رغم عنف السخرية اللى كانت محضرها لى الحياة من سذاجتى.. بس يظهر إنى زى ما قال شاعر أمريكى، البرجوازى الصغير الخالد.. كتلة من المتناقضات.

يا ترى توهتك معايا وأنا بانتقل من علاقتى بالنضال وكوكب الحالمين فى التاريخ، على حكاية البيوريتانية وقصتى مع الضعف؟.. بس كان لازم نمضى فى استكشاف الملمح **"الدون كيشوتى"** ده لآخره، لأنى زى ما قلتلك فى البداية مشاكل علاقتى بالشيوعية هى نفسها مشاكل علاقتى بالحياة.. ودلوقتى بما إننا غوطنا لغاية كده خلاص، يبقى هنا المكان المناسب إننا نطلع تانى، ويستحسن نسلك فى الخروج سكة العودة الطبيعية، من حيث انتهينا، عشان نجاوب على الأسئلة اللى سبناها مفتوحة، وأتعشم إنى أرجع تانى للإيجاز، لإننا فعلاً فى الجزء الأخير...

حا نرجع لمثلث الخوف ـ والصدق ـ والضعف والقوة بس من زاوية مختلفة شوية.. بتطلبوا منى. وآخرين أيضاً إنى أكتب، وبتقولوا إن عندى الخيال والصدق الكافى للكتابة.. ده بيفكرنى بعبارة لإرنست فيشر فى كتابه الجميل **"ضرورة الفن"** بيقول فيها ما معناه إن الفن زى الفرس الأصيلة، الأداة اللى تذل الكاتب المتوسط، يخضعها ويسيطر عليها الفنان الحقيقى.. وهنا يا سجل تحفظى اللى دايماً بيستوقفنى لما تتكلم عن سيطرتى على اللغة، باعتبارها أداة، إن الفن (فن الكتابة فى حالتنا) ليس فقط تمكن من أداة، وإنما هو رؤيا مُلهَمَة للواقع، شرفوها البشر بالإجلال حتى رفعوها لمرتبة **"الخلق"**، خلق **"المطلق"** **"الحلم"** من قلب العادى، وحتى المبتذل! و**"الخالد"** من قلب **"العارض"** المتواضع اللى لا يخطر فى بال **"الناس العادية"** إنه هو بذرتها هى اللى لازم تتخصب بيها الأحلام، عشان تكون حقاً عبقرية.. بس مين يقدر على سر الخلطة دى؟!.. يظهر إن الدعابة اللى قلتها لك فى أول الجواب فى محلها، لازم الواحد يتمتع بجسارة فذة، عشان يقدر يتسع ويشوف النبع المشترك لكل تلك الوحشية والعذوبة فى آن واحد (حتى

الدناءة، ينبغى أن تقدر على اكتشاف "**الإنســان**" فيهـا، لكى لا تكون مجـرد أخلاقى برجوازى صغير، فما بالك بفنان)..

إنتوا بتطلبوا منى من الجسارة ومن القدرة الإنسانية ما لا أملكه.. الكتابة عايزة وجدان خصب، أما أنا فمن أى معين أجلب، من ندوب؟! أنا لم أعرف الناس، وإنما عرفت فقط خوفى منهم، والخوف شعور فقير، وطبعاً مش ملهم.. وهنا أقدر أدخل "**التاريخ**" عشان ما ابقاش ظالمة مع نفسى، واقول انا أيضاً "**بطل من هذا الزمان**" الرمادى على حد تعبيرك، واقدر أراجع معاك الفترات اللى كتبت فيها، وهى مش كتيرة، بالتحديد لإن كان فى "**زمنها**" شىء ملهم..

١ ـ فترة كتابة المذكرات من سن ١٦ : ١٨ هى فترة ٦٨، فترة القلق الخصب الباحث عن طريق، اللى أجهضت على حد رأيك الصائب بعد ٧٣.

٢ ـ فترة ٧٢، ٧٣، الكتابات السياسية، حين بدا أننا أخيراً نعثر على الطريق، وكذلك أنا، واتضح أنها "**حلاوة روح**" لكلينا.

٣ ـ وأخيراً الكتاب اللى كتبته فى الخارج وأنا لأول مرة باحلق بعيداً عن مشوار القبح الطويل فى السياسة، وأسبح فى جمال صافى بلا أعباء، بلا ثمن من النوع اللى تعودت أدفعه، ثمن انفضاض الوهم.. لكن هنا أيضاً كان ينتظرنى ثمن، ثمن القفزة من الإرهاق الطويل، إرهاق عمر مثقل بتأملات فوق طاقته، ومحكوم عليها بالعقم لأنها سجينة الخوف، ولا تتنفس بما فيه الكفاية، الحياة.. بالذات لأنها قفزة، كان لازم أفقد التوازن ـ اللى كان مفتقد فى الاتجاه الآخر.. وخطر ببالى، وكان لازم يخطر، إنى أتطلع للماضى بتشفى، وكتبت كتاب بالغ الشاعرية ومسموم، وما كانش فيه مفر إنى استنشق بخار ده كله... أنا دلوقتى معنديش أى شك فى إنى لما كتبت الكتاب ده كنت فى حالة وإن كتابته كانت هى السبب الأساسى وراء إصابتى بحالة الشيزوفرينيا المؤقتة اللى جت قرب نهايته (معذرة إنى استطردت تانى، بس دى كانت نقطة محيرانى لغاية دلوقتى).

الجمال المحلق ده، اللى ما لوش صلة بواقعى الكئيب، جه على هوايا، وطبعاً كان فيه مقتلى، فهل أبحث عنه اليوم مرة أخرى، مع فارق، إنى أعرف! أعرف إنى با صدر حكم نهائى ليس فقط على علاقتى بالشيوعية التى أحبها من أعماق قلبى (وإن يكن أيضاً - ربما كمفهوم مطلق فقط!) بل وعلى علاقتى بالكتابة، وبالبشر القليلين اللى بيربطونى بواقعى وأهلى.. باصدر حكم نهائى فى الحقيقة على نفسى، وانا لسه يادوب بابتدى أتعرف على الدنيا؟.. متهيأ لى المفارقة دى نفسها، أصدرت الحكم بالفعل.. انا إتأخرت قوى، وجاية ابتدى فى زمن ليس فيه ما يكتشف، ما فيش خيط جمال أمشى وراه، وابقى مستعدة أدفع ثمنه.. لكن حتى لو كان فيه، هل بقى لدى، بعد كل الرحلة المنهكة دى (دون أن يكون الإنهاك ده ذنب حد) ما أدفعه، مهما كان جمال **"الوعد"**!

صلاح چاهين عنده حق فى إن **"اللى يخاف م الوعد يبقى عبيط"**، بس الحقيقة اللى ما قالهاش ومش محتاج يقولها، إن مش دائماً النهاية بتبقى سعيدة، لأنه يظل عنده حق فى إنه **"طلته، ماطلتوش، إيه أنا يهمنى، وليه، مادام بالنشوة قلبى ارتوى!"**.. وانا فعلاً ما راودتنيش لحظة ندم على الطريق الوحيد اللى بيفتح أبواب اكتشاف العالم من جديد.. لكن اللى حصللى على مدى المشوار، كان فيه شىء فوق طاقتى، بالتحديد لأنى كنت فيه - فى الواقع - وحيدة.. كل أحلام العالم لا تغنيك عن لحظة الدفا اللى يقدر يديها لك وجه إنسانى، (كانت دى **"اللمسة الأخيرة"**، عشان تكتمل الهوة السحيقة اللى بتفصل أحلامى عن واقعى).. ولما يكون الحلم الخاص اللى أغراك وجراك على الرحلة دى، "الوعد" اللى كان بيلوح فى آخر الطريق هو الرغبة العارمة فى التواصل الإنسانى، تقدر تتخيل قد إيه كان ثقيل حمل الهزائم على كتفى الوحيدين، وأنا با حاول أكمل رغم الاصطدام المتكرر - اللى بدا قدر غير مفهوم - بالقانون الوحشى للعلاقات بين مثقفين محكومين بواقع وحشى، سواء كانوا من جيل الشيوخ. (**"الأبناء الضالين العائدين"** لحجر النظام) أو جيل الشباب، المهزوم أيضاً، ولكن من قبل حتى أن تتاح له فرصة خوض

تجربة تاريخية!.. وعلى بال ما وصلت "**للناس العادية**" كان "**القبح**" استولى وساد، وطالهم أيضاً.. وعشان كده كان سؤالى ليك، نقطة البدء فين؟!..

"**الواقع**" ده لا يقدم لى ولا حتى ظل، لحلمى الخاص، اللى اتخرشمت عشانه.. لا يهمنى، ومش قادرة أنتمى له، فضلاً عن إنى أكتب عنه!.. نعم أنا لا أريد سوى حلمى المحلق، وإن كان "**خيالى**" الحالم فى أصله شبهة العجز، فكذلك "**صدقى**" اللى ما كانش صدفة إن قدرته الخلاقة لم تتجاوز المذكرات وشبه المذكرات، إلا للحظة فى غفلة من الزمن، زى ما كانت الحركة الطلابية لحظة أشرقت فى زمن البرجوازية، قبل ما يحل ظلامها المطبق.. الحدود الحقيقية لجسارة خيالى هى حدود جراتى على الفعل، اللى لما كان يبدو وكأنه بلغ أقصى جرأة، كان فى الحقيقة بيتبع خيال بيحلق فى أبعد نقطة عن الواقع! ومش ده الخيال اللى بيخلق الفن، الفن "**عارف**" بالواقع، ويولد من المعرفة دى. مش من الهروب منه، "**وصدقه**" رهين لها، ما هواش صدق ذات مفردة ـ وبالتالى محدودة ـ مع نفسها، الصدق "**العاجز**" عن اكتشاف ملامح أحلامه فى الناس اللى عرفهم (رغم كل دفاعى الحار عن "**مفهوم**" الناس العادية).. وربما يكون ده مش ذنبى لوحدى، ذنب الأزمان اللى عشتها والناس اللى عرفتهم فيها، لكن دى تجربتى الحقيقية، اللى أنا مضطرة أعترف فى آخرها، إنى ما قدرتش أعثر على نقطة إلتقاء حقيقية وقوية بالناس، وإنى باصطدم بالهوة بين الواقع وبين أحلامى، أوسع من أى وقت مضى، و"**الجديد**" إنى بادرك إن الواقع صار رمادياً وساحقاً للأحلام والحالمين، وإن خيالى الحالم أكثر هزالا من أن يصمد له، لأنه، رغم كل العنف والافتتان الحقيقيين فى التجربة اللى استغرقت عمرى، فشل فى أن يعثر على موطئ قدم واقعى، أو فى أن يوجده.. ولم يعد يشغلنى البحث ده فى الحقيقة وإنما الهروب من قدر القبح اللى بيلف مصر وناسها!.. لا زال صدقى يمنحنى حرية هائلة فى تحديد اختياراتى وموقعى من الأحداث دون حرج، لكن الحرية دى بقى واضح إنها مرتبطة بتحرر أحلامى من أى واقع، حتى واقع بلادى.. بعد كل التجربة اللى قدر لى إنى أخوضها، ما زال

صدقى البيوريتانى على حاله لم يمس، وكذلك أحلامى المحلقة، لم يبتذلها الواقع، ولكنه أيضاً لم ينضجها، ومعهما عجزى العميق عن بلوغ نقطة التقاء مع الواقع ده.. وما زال "**الحل**" اللى با قترحه "**بصدق**" هو الهروب، إلى حيث لا يوجد كل هذا العنف والقسوة والتعقيد. ولا تخجل "**أحلامى**" من الفرار من هموم الوطن، (وكإن الهموم دى لم تكن سوى لعبة للأحلام دى لفترة، ورميتها بعد ما لسعت إيدى، بحثاً عن أحلام وروابط "**بالبشرية**"، غير مؤذية!) ربما لأنها لم تعرف أبداً كيف تكون فاعلة فيه.. ودلوقتى حتى لو عرفت، بقى صعب ابتدى، لإن الثمن بالنسبة لى باهظ، وهو التعامل مع واقع كئيب وكريه...

تصدق، أنا ما كنتش متصورة أبداً فى بداية البحث ده، إن الاستنتاجات حا تبقى بالقسوة دى، يبقى فى الآخر كأنك يا بو زيد ما غزيت! ربما يكون ده قدر معظم أبناء جيلى، لكن حتى فى التوازن النفسى، أنا كنت شايفه إنى قطعت خطوة مهمة فى إرساء أساس حقيقى - مش متوهم - فى علاقتى بالحياة، بالواقع.. واتخلصت من كثير من مخاوفى فى التعامل مع الناس، وبدا لى إنه إنجاز كبير، بالذات لإنى حققته بدون حماية من المؤسسات اللى احتمى بيها معظم جيلى، وأنا متشردة فى الحياة، بدون وضع اجتماعى من أى نوع، حتى السكن كان فى ضيافة أختى.. تقوم تبقى الخطوة دى كل قيمتها الحقيقية أن أعرف إنى محكوم عليا أبقى على هامش الحياة لإنى مش حمل معاركها!

الشغل لفظنى لأنى متعالية على قانون العلاقات فيه، وفى نفس الوقت مش قادرة أحمى نفسى المتعالية من القوانين دى، وده هو القانون فى كل مكان، تفتكر إن العمل فى الكتابة محتاج جَلَد أقل؟.. لو عايزة أمارس نشاط مش لازم صراع مع اللى باشتغل معهم ومع الناس نفسها، قبل ما يكون مع الخصم؟.. تصور، أول خوف محرق عبرت عنه فى بداية علاقتى بالسياسة، هو إنى - بالحرف - "**ما باحبش الصراع**"! لكن حتى فى الرقعة الصغيرة اللى

ابتديت أتعلم فيها الحياة، فى الشغل، اتفرض عليا الصراع رغم أنفى، رغم ابتعادى عن كل مصادره المتصورة، رفضوا إنى أتفرج عليهم بتعالى، وكان المطلوب كسر أنفى المتعالى بالذات (ما كانش فيه معركة فلوس ولا منصب)..

وبعدين؟!.. ما العمل؟!.. أنا حقيقى فى مطب ما كنتش متوقعاه.. هل فكرة الهروب للخارج بتحمل فى الحقيقة "تقاعد" مبكر عن الحياة؟.. لكن فى المقابل أنا لم يعد لدى قدرة على أن ألوى عنق نفسى وتكوينى أكثر مما فعلت حتى الآن (مرة لحساب حركة معزولة عن الحياة، ومرة أخرى وأنا باحاول أستعيد الصلة بالحياة، اللى كانت مرتبكة من الأصل، والزمن اللى استغرقه ده من عمرى!) لازم اللى با عمله هنا يبقى بيجتذبنى ويحقق لى سلام داخلى كافى عشان أقعد، وإلا مفروض ما أقعدش مهما كان الثمن! ((لاحظ إنى تجاهلت التعرض لهوامش مهمة فى وضعى، وضع الحصار الفاشستى للمرأة العزباء، حاجة باتنفسها فى كل خطوة)).. يا ترى فيه فرص هنا أنا با هدرها بفكرة السفر، أم إنى فعلاً مستهلكة لدرجة لا تسمح لى بمزيد من العراك؟ (لو إنى عمرى ما كنت صالحة له فى أى وقت!).. متهيألى الإجابة على السؤال ده حا يحددها خطوة من اتنين يا أسافر، ياادخل فى حاجة فعلاً واشوف.. بس تفتكر لو كان فى إيدى خيط فعلاً، ما كانش زمانى با سأل عنه؟

شيء مؤلم جداً إنى الاقى نفسى مرة أخرى قدام نفس السؤال الحائر اللى استولى عليا فى مرضى، أعمل إيه؟.. أنا كنت طرحته عنى بعنف وكراهية، واعتبرته منظور ضيق للحياة والناس، وإن فكرة "تحقيق الذات" كما تعودنا التعامل معها فيها أنانية الانشغال بالنجاة المنفردة من السفينة اللى بتغرق بالجميع، البحث عن "دور" يبرر الوجود الفردى ويعطيه أهمية، فى الوقت اللى بتنسحق فيه ذوات الناس بالجملة، تفادياً لمصير "الآخرين" بالذات، وليس من داخل المشاركة العميقة لمأساة هذا المصير، وعشان كده

البحث عن "**تحقيق الذات**" فى السياق ده فيه شىء مغترب من المبتدى، مش إنسانى، لإن "**الناس**" ومشاكلها وكل "**قضايا الخلاف**" ـ فى السياسة أو فى الفن ـ بيتحول لمجرد "**وسيلة**" لتأكيد الذات، للإرتفاع فوق "**مرتبة**" الناس العادية (مفيش اتنين مثقفين يختلفوا على صحة الكلام ده، لكن نادر تلاقى واحد لا يتصرف على الأساس "**البرجوازى**"ده).. وكنت باكره قوى التصور ده، ولازلت، أن ما يسمى بتحقيق الذات، تحول "**لبطاقة جدارة**" لأى صلة إنسانية، بدونه سقطت لمرتبة "**العاديين**" غير الجديرين بالاهتمام. فيه رائحة فاشستية تقريباً با شمها فى المنظور ده.. تعرف إنه كلامك عن وجود "**المشروع التاريخى**" الملهم، بيقدم إجابة مهمة قوى هنا، بالتأكيد إن المثقفين اللى ألهمت حركتهم مشروعات كبرى منذ بدأت الثورات البرجوازية، كانوا بيتصوروا نشاطهم ضمن حركة أوسع من كل فرد فيهم، وبيلهب خيالهم وحماسهم الإحساس بإن المشروع ده يخص الناس كلها، وبإن دورهم فيه "**من أجل**" الناس، وليس سبيل للخلاص الفردى من الكارثة.. وفى المقابل تفتت المثقفين المصريين إلى ذوات منفردة بتحاول تنجو من الطوفان، مرتبط بفقدان الشعب بأسره للهدف والحلم الجماعى، وتفتته لوحدات منعزلة، الحقيقة الوحيدة اللى بتحكم علاقتها ببعض، هى الصراع من أجل البقاء.. والاتنين بيدفعوا الثمن! واضح إن المثقفين مش حا يطلع منهم إبداع يذكر، إلا ضمن مشروع أكبر منهم، يقدر يطلع منهم الرغبة فى المشاركة مش فى النجاة بالذات.. لكن يبدو إن ملامح المشروع ده، مش حا تتضح قدامهم قبل ما تبتدى تتضح للناس (رغم إنهم "**الطليعة**") بينما يبدو إن حكاية الثورة اتعقدت كثيراً جداً، ومعاها حركة التاريخ. بعد ما تلقته من هزائم على يد الأعداء والأصدقاء.. تفتكر إن حفنات قليلة من الناس ممكن تمهد فعلاً طريق للمشروع ده.. لا أعرف..!

بالنسبة لى، النفور من حُمّى تحقيق الذات والبحث عن التميز، كان بيقدم فرشة وجدانية للتصور اللى اعتبرته ديمقراطى، عن وجود مواكب واسعة من الناس (لا تقتصر على المناضلين والفنانين المبدعين) تتمرد وتحلم

وتتصعلك ولا تتوائم مع الأمر الواقع، وأن كلاً منها يشارك بشكل ما فى تلك المسيرة التى لا تتذكر سوى نجومها البارزة.. اعتبرت نفسى من الناس دول، وإن **"عدم تحقـقى"** لأى سبب مش مأساة، لإنى ببساطة مش أجدع من كل اللى بيستحقهم الطوفان الحالى، بالعكس، من حظى إن عندى فرصة التمتع **"بالمعرفة"** إلى ما لا نهاية..

لكن الصيغة دى أيضاً، ابتدت تتهز من سنة، لأنى ابتديت أحس بقوة بإن الفقر بياكل روحى، وإنى محتاجة لمقاومة منهجية وإلا فإن نوعاً من الدمار لا أعرفه بدقة سيلتهم روحى.. من غير ما يبقى فيه شبهة العودة للمفاهيم اللى باقول عنها فاشستية ولا للتصنيفات والإجابات اليسارية الجاهزة القديمة، أنا حاسة بكل كلمة هنا بقوة موجعة، ليه صحيح لازم الإنسان **"يعمل"** حاجة لكيلا تذبل روحه؟.. يمكن لأن **"الحياة العادية"** اللى انتقلت لها، هيا نفسها فقيرة للغاية أيضاً، والعلاقات الحميمة البسيطة فيها مستحيلة بسبب حواجز المؤسسات والمصلحة والمنافسة، المشترك فيها قليل أيضاً.. ولكن حين أبدأ نشاطاً ما، لا لسبب إلا لإنقاذ نفسى، ألست بذلك أعود للنقطة التى أكرهها، وأعكس الآية؟! (فيه واحد إنت مش بتحترم ذكاؤه قوى، قالها لى مرة بذكاوة، المشكلة إن نفسك تعملى حاجة بتحبيها، لكن ما بتحبيش حاجة كفاية عشان تعمليها!).. فعلاً أنا نقاط قوتى متركزة فى النشاط النظرى، لكن أنا كارهة **"حياة الكتب"** وحاسة إن انفرادها بحياتى مسئول عن ضعف علاقتى بالحياة، ومن ثم - مرة أخرى - بالمعرفة نفسها! وما عنديش أى استعداد أشتغل فى **"البحث العلمى"** أو ادخل معارك **"مدارس الفقه"** الميتة فى النقد الأدبى فى مصر.. وإذا كان لابد من **"نشاط"** يبقى حيوى وجماعى، وعشان كده فكرت فى السينما، لكن لقيتنى بعيدة عن أى حرفة فيها!.. **"الخلطة"** فيها حاجة غلط بقولك!

أنا آسفة إنى طولت إلى هذا الحد، بس إحنا كده نبقى خلصنا فعلاً.. صبرك مكننى إنى أشوف حاجات كنت محتاجة أشوفها، بس أنا محتاجة

عونك لإنى رسمت كويس المأزق، بس مش عارفة أحل (وما كانش فى بالى وأنا بابتدى الجواب ده إنى قدام مأزق) واضح إنه إذا كانت الحياة لم تيسر بنفسها سبيل لى أعمل من خلاله صلة بالناس أكثر غنى وإنسانية، فمطلوب إنى أصنعه بالإرادة، وربما يقدم لى السفر جرعة الحياة اللى أنا محتاجاها عشان أستعيد التوازن اللازم عشان أقدر أكون مثمرة (وربما ده يكون وهم ايضاً، لا أعرف)، لكن إلى أن يأتى السفر أنا مطالبة بالسعى الإرادى ده، اللى أنا مش عارفة فى إيه بالظبط، بس حاسة إنه يبقى ما لوش معنى لوكان نشاط منفرد، يمكن لإن دى حدود إمكانياتى..

طبق الأصل

وثيقة رقم (٢)

أشبيلية فى يوليو ٨٥

عزيزى (....) با كتبلك من سيفيليا (اللى هيا أشبيلية بالعربى) فى جنوب أسبانيا، وهى برضه صعيد أسبانيا، اكتشفت هنا إن كل ما تدين بيه أسبانيا من طابع عاملها سمعة فى العالم كله، موطنه هنا فى سيفيليا، بلد جميلة جمال ما أنزل الله به من سلطان! لما شفت النهر هنا، غصب عنى(!) حنيت لمصر، وعرفت إنها ممكن تبقى بلد جميلة!

انا لسه لوحدى خالص، لكن حكاية **"التعايش مع الاغتراب"** ابتدى يحصل فيها تطور مدهش، وجدّى جداً.. ما بقتش حكاية تعايش مع حاجة إنت مش عايزها (زى ما كان وضعى طول الوقت) بقت متعة!!! والحقيقة حاجة أكثر كمان من إنها تكون إحساس فقط، أنا بقيت منسجمة مع التوحد، كل ماضيًا وخبراتى بتتصاغ دلوقتى وتلتحم فى موقف نهائي من الحياة ومن الآخرين.. الخبرات المريرة **"اللى قتلتنى"** ـ على رأى غنوة حدوتة مصرية ـ بقيت فاهمة دلوقتي إنها ببساطة ثمرة قسوة الحياة نفسها فى مجتمعات ميتة، ووصلت من زمان مرحلة اللاإنسانية ((سبحان الله، الواحد يدفع عمره عشان يكتشف بديهيات!)).. أنا كنت با طمح لحياة جميلة ومليئة، وللفرار من قَدر الملل جوه بيوت الطبقات المتوسطة، وفى كل مرة كان بيتحطم الحلم ده، ويسيبنى ركام وراه، كانت دهشتى بتعادل عذابى، ليه باتأذى، مع إنى مش عايزة أأذى حد، بالعكس، عايزة علاقة بالناس توصل لدرجة الاندماج الكامل! (ما كنتش عارفة إن ده بالذات، كان كعب أخيل)، لكن دلوقتى سلّمت بإن **"الفرار"** ده مستحيل، بالظبط زى ما هو مستحيل خلق يوتوبيا من الجمال والعلاقات **"الإنسانية"** فى مجتمعات ما هياش إنسانية، كان من العدل إن الحياة تسخر بقسوة من أوهامى، اللى فى الحقيقة لا تخلو من أنانية، أنانية الرغبة فى تفادى

القدر المأساوى اللى بيلف حياة الغالبية العظمى من الناس، واللى بتفرضه عليهم الأقلية المالكة فى كل مكان فى العالم بإيد من حديد - دلوقتي باقبل "**وساخة**" الحياة وما عادش "**النقاء**" مثلى الأعلى (اللى هو طبعاً المثل الأعلى للبرجوازية الصغيرة - الطبقة الوحيدة الواهمة - سواء كان بيصنع نفاقها أو استشهادها)، (وفى نفس الوقت عرفت ليه الناس كانت بتقول عليا "**قاسية**" مع إنى طيبة فعلاً) - الحقيقة بقيت باحتقره، لأنه موقف متعالى على الحياة، أجبن من إنه يحط إيده فيها، ويتلسع ويتشكل ويبقى بنى آدم!.. وما عادش بيخجلنى الذل اللى شفته، ما فيش حاجة فى ماضيّا "با نكرها"، ولا السنوات الطويلة من "**العماء الأيديولوچى**"، المخجل فى الحقيقة لإنه مغرور وضيق وتافه وجاهل كمان.. مع إنى، أو تقدر تقول بالعكس، لنفس الأسباب مش من الماركسيين اللى بيسموهم "disillusioned"، الناس دى با حتقرها من قلبى، دول مش تخلصوا من الوهم، هم عمرهم ما عرفوا اللى كانوا بيتكلموا عنه من الأصل، عمرهم ما حسوا بيه ولا حاولوا يتمثلوه، ولا كان بالنسبة لهم معاناة اكتشاف، إنما مفتاح سهل لغزو الدنيا، وللتعالى على خلق الله اللى مش من فصيلة المثقفين (من حسن حظهم طبعاً) زى أصحابنا الأيديولوچيين اللى الواحد ضيع وسطهم أهم سنين العمر.. أنا مؤمنة إيمان عميق بصحة الماركسية، وبصحة مواقفها إجمالاً فى الحياة وفى الفن كمان (حاجة بذيئة قوى الدفاع عن فن مش طالع من الحياة ومش راجع لها!! أنا شايفة بوضوح فى وجهة النظر دى، مزاج طبقة شبعانة موت، بقت معادية للحياة(!).. الطبقة المالكة، الله يجحمها فى كل مكان زى ما هى كابسة على نفس العالم كله، وعايزة تموته معاها كمان!)).. وبنفس القدر عندى استعداد كامل "**لمراجعة**" أى فكرة فيها، لارتكاب هذا "**المروق**" الأيديولوچى، خلاص ما باكلش من الإرهاب "**الدينى**" بتاع المتشيعين اليساريين، اللى جهلهم بالماركسية يعادل جهلهم بالحياة، لإنه باختصار نابع منه ((على فكرة لو قدر لى يوماً ما إنى أساهم فى وضع لائحة حزب، مستعدة

أحارب عشان يحطوا شرط فى العضوية، إنها ما تقلش عن ٣٠ سنة، وإنه يكون سبق له العمل، اشتغل يعنى وكل عيشه بعرق جبينه، اتذل زى بقية خلق الله اللى عايز يعمل عليها "**طليعة**"(!)).

باختصار (...) انا اخيراً با حصل على نوع من "**السلام**" كنت بادور عليه من ساعة ما وعيت على الدنيا.. بعد معاندة، خلاص باسلّم لقوة منطق الحياة، وهىّ فى المقابل أخيراً بتطاوعنى، بعد ما دفعتلها الثمن، وبرهنتلها إنى قد المغامرة اللى شرعت فيها من ١٩ سنة(!) ((تصور انا عجوزة قد إيه! عمرى ٣٤ سنة، يعنى داخلة على الأربعين)).. على فكرة بالمناسبة، من الأحاسيس الغريبة اللى بتلح عليا دلوقتى ـ ومش فاهمة طلعت منين ـ ومش قادرة أقاومها رغم ما فيها من قسوة، النفور من العواجيز! نفور أحياناً بيوصل لدرجة شعور جسدى بالاشمئزاز! باحس إنهم سبّة فى وجه الحياة، وبافتكر حاجة بشعة سمعتها عن تقليد يابانى، إن الناس لما تعجّز تاخد قليل جداً من الزاد، وتطلع على قمة جبل، تستنى الموت فيه!.. غصب عنى ابتديت أشوف فيها فكرة! وابتدت تداعبنى فكرة إنى لما أوصل مرحلة معينة من العجز انتحر.وبالترافق مع الفكرة دى ابتديت، لأول مرة فى حياتى، اتأمل شوية الموت ـ بس مش من زاوية ميتافيزيقية، بمعنى البحث عن ما وراء الحياة، ـ لكن باعتباره عملية قضاء على الحياة.. بيتهيألى ابتديت افهم شوية الفكرة والإحساس ورا البطولة مثلاً، بيتهيألى (...) إن البطولة لا يمكن تكون إلا عمل عادى، قطعة من الحياة الجارية! ((مع تقدير كل ما هو غير عادى فى الموضوع طبعاً)). يبدو لى إن طبيعة موت ما، بتحددها طبيعة حياة الشخص اللى بينتهى ده.. مثلاً، إيه اللى ممكن يفقده شخص تسربت منه الحياة فعلاً، مريض وبيمارس إهانة إن الناس تمسحله شخته! (فى الأوضة اللى جنبى فى البنسيون، فيه واحد بالشكل ده، ما عندكش فكرة، بيسببلى إحساس ممرض بالنفور!)، إيه اللى ممكن يفقده شخص زى ده بالموت! حا يتخلص من وضع مهين على الأقل، وضع فقد فيه صفته كبنى آدم!..الكلام ده أكيد قاسى، مش كده، بس

مافيش فايدة إنى أكذب كمان.. الغريب إنه من الزاوية دى، الموت بيبدو لى مش مخيف، ما أقصدش يعنى إنى ممكن أعرض حياتى للخطر ببساطة، دا انا با موت فى الدنيا، لكن أقصد إنه فى اللحظة اللى تفقد فيها الحياة "الطعم" بالنسبة لى، أفتكر إنى مش حاخاف من الموت، وبنفس القدر برضه - افتكر - إنى (لو استمريت بالإحساس ده) أقدر أموت عشان قضية، ساعتها الموت يبقى جزء لا يتجزء من الحياة (الجملة دى بتتقال كتير قوى، لكن ما اظنش إن ناس، كتير فاهمة كمية الحكمة اللى فيها!) بيبقى البنى آدم فى لحظة أو حالة، منعدمة فيها الفواصل بين حياته كفرد وبين حياة الآخرين ((علشان كده من الصعب إنك تحصل على تضحية زى دى من مثقف! إعذرنى، أنا با كره المثقف من أعماقى، بصورة مطلقة!)) ساعتها بتبدو له - زى ما يتخيل - الحياة (كل)، لازم ينقطع من حتة عشان يتوصل من حتة تانية! بالبساطة دى.. ولو ما كانش بالبساطة دى، ما كانش ممكن الملايين تعمله علي مر التاريخ، كل يوم! صدق اللى قال إن الجماهير بتصنع التاريخ! بس للأسف، بتعمله بإنها تدفع الثمن وبس، أما "الدماغ" فلسه حكر علي المثقين! برضه عدل، إنهم رغم احتكارهم لإنجازات العقل البشرى، اللى محرومين منها كل الناس، أرواحهم معفنة، جثث ماشية على قدمين ما يعرفوش يتبسطوا، لإنهم بينشغلوا قوى "بالكلام" عن تجربتهم، والألم الوحيد اللى يجيدوه، هو الرثاء للذات! أما المشاركة، فمهما قالوا، رأيهم الحقيقى فيها إنها سذاجة! حتى اللى ما يعرفوش ومجربوش برضه عارفه، ما هو أصله ربنا ...! بسلامته...!.

طبق الأصل

ليه يا بنفسج بتبهج..

وانت زهر حزين!

اسمحوا لى أن أخصص هذه الخاتمة الوجيزة، تحية للحالمين. أولئك الذين كانهم أبناء "**جيل السبعينيات**" ذات يوم، فقد كانت لحظة الحلم (بإمكانية تغيير وجه الحياة) هى الترف الاستثنائى الذى تمتعوا به، وحرمت منه الأجيال اللاحقة، ومع ذلك ولأن لكل وضع ضريبته، فكما أن الأجيال الشابة التى ترى الواقع محررة من الأقانيم الأيديولوچية، تدفع الثمن استسلاماً دون مقاومة تقريباً للقيم اللاإنسانية للمجتمع البرجوازى - وأحياناً دون حتى إدراك، دون أن تضىء روحها خبرة تمرد مثل تلك التى أتيحت لنا، فنحن أيضاً سددنا فاتورة باهظة مقابل تلك اللحظة القصيرة المبهرة. فإذا بدونا لكثيرين من الأجيال السابقة أو اللاحقة "**ملائكة ساقطين**"، فما ذلك إلا لأنهم يصدقون فى "**ملائكيتنا**" - فى نقاوة كيتشنا اليسارى فى الحقيقة - أكثر مما يجوز تصديقه فى بشر. فالحالمون - فى عصرنا على الأقل - لم يعودوا أناساً مسبلى الجفون على نظرة سارحة (واشك أنهم كانوا كذلك فى أى عصر) وإنما هم أولئك الذين اخترقتهم كل الأوحال التى أثارها تمردهم. وخصوصية المأساة عند جيل خاض تجربة التمرد، هى أنه مهما كان مآل كل واحد من أبنائه - سواء سار فى سكة السلامة: طريق التوبة، الإذعان لقوة الأمر الواقع، وحتى إعلان الكفر بكل قيم التمرد القديم، أو طريق الندامة: الانهيار، اعتزال الحياة، المرض النفسى - فإنه شاء أم أبى لا يعود أبداً نفس الشخص الذى كانه قبل أن تبتليه غواية التمرد، لقد مسه سحر الحلم مرة، وستبقى تلاحقه دوماً ذكرى الخطيئة الجميلة - لحظة حرية، خفة لا تكاد تحتمل لفرط جمالها - تبقى مؤرقة كالضمير، وملهمة ككل لحظة مفعمة بالحياة والفاعلية، ومؤلمة. فالواقع أن "**سكة اللى يروح ما يرجعش**" ليست سكة ثالثة، إنما هى كامنة فى قلب اللحظة التى تقامر فيها بوجودك لتتبع حلماً، ويستوى بعد ذلك أن تسير فى سكة السلامة أو الندامة، فأنت حتماً لن تعود أبداً نفس الشخص الذى كنته قبل أن تبلوك غواية التمرد، وليس فقط لأنه جميل. فلأن التمرد

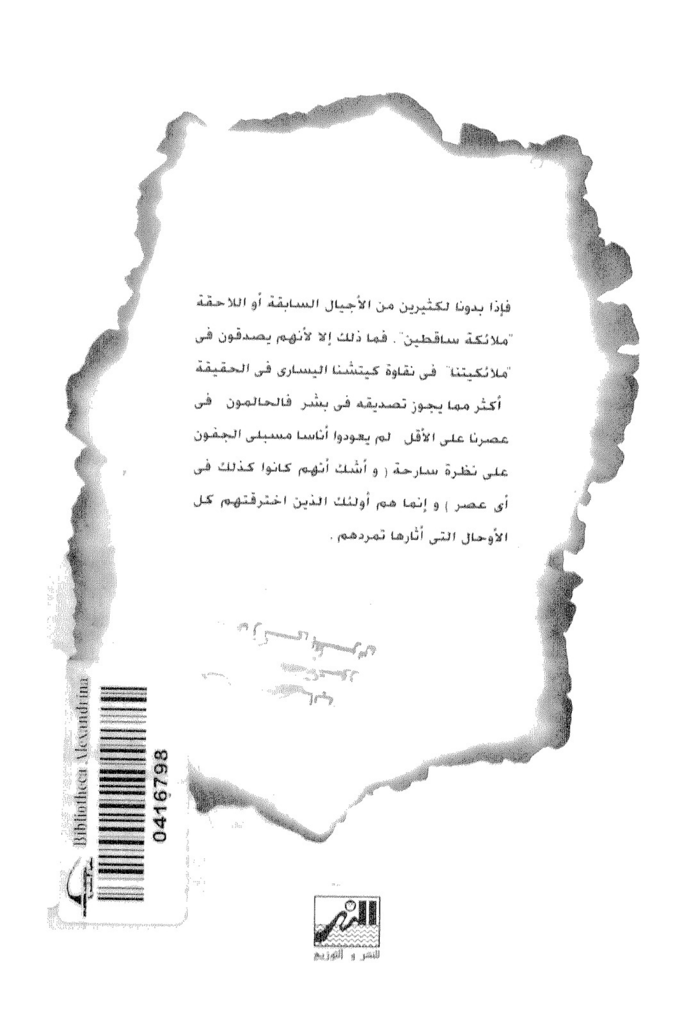
لحظة حرية استثنائية، استثار كل ما فينا من نبالة، وأيضاً أهاج كل ما فينا من وحشية، وحين اتخذ المنحنى مسار الهبوط ـ كما يحدث عادةً فى النهاية، بقيت صور فظاظاتنا (التى ارتكبناها والتى ارتكبت فى حقنا على السواء) دون غطاء يداريها الآن، دون "**سياق تاريخى**" يبرر، ودون اندفاع نبيل يوازن، ولقد أُقفلت كثير من الجروح دون تطهير ـ فثمن المواجهة كان فوق الطاقة فى أحيان كثيرة ـ فأبقت الوساخة بالذات على الجرح حياً، لا يندمل ولا يموت، رغم دفنه عميقاً حيث لا يراه أحد، وكانت هى الثمن الذى مازال بعضنا يسدده حتى الآن ـ ربما حتى فى أكثر علاقاته حميمية، ولا هو يكف عن الهرب ولا الجرح يكف عن جلده ـ ولو من خلف ستار الوعى. وبعضهم يحوم حول موضع جريمته بالذات، تماماً كما تردد الحكمة البوليسية، كساقط يائس من العفو.

ولكن ترى ألا يبقى من حلمنا القديم سوى وهم تبدد، وبضع جراح! مرة أخرى لا أظنه عاد ممكناً الحديث بصفة جماعية ومن المؤكد أن هناك من الإجابات على هذا التساؤل، بقدر ما هنالك من ناس ضمهم هذا الجيل. وفيما يتعلق بى فقد استبقيت من هذا الماضى ما اجتذبنى فيه دائماً ـ إمكانية الحلم ذاتها، رغم أنى كثيراً ما أشك فى أننا نقترب بالفعل من نهاية العالم. وبقى يجتذبنى خيال ماركس كآخر الحالمين العظام، وبقى جزء من دماغى يعمل بآلية تعلمها فى عالم أفكاره، إذ يستحيل علىّ فهم الناس خارج وجودهم العيانى فى طبقة، أما نقده للمجتمع الرأسمالى، فلعله نبوءته الوحيدة التى تتأكد كل يوم. كان هذا الفكر وهذا الحلم ذات يوم جزءاً من رحلة لانتزاع تحرر أتوق إليه ولا أفهمه، ولعل الحرية هى كل ما حصلت عليه من هذه الرحلة، وبالنسبة لى لا بأس بهذا الحصاد ـ حتى وإن كانت الحياة فى بلادى على الأقل، تتسم الآن بدرجة من التعقيد والخواء والرياء الأخلاقى تجعل هذه الحرية محاصرة تماماً تقريباً فى داخل عاجز عن التواؤم.

فهرس

جـرانتــى

للدعــاية والاعــلان



فإذا بدونا لكثيرين من الأجيال السابقة أو اللاحقة "ملائكة ساقطين". فما ذلك إلا لأنهم يصدقون فى "ملائكيتنا" فى نقاوة كيتشنا اليسارى فى الحقيقة أكثر مما يجوز تصديقه فى بشر فالحالمون فى عصرنا على الأقل لم يعودوا أناسا مسبلى الجفون على نظرة سارحة (و أشك أنهم كانوا كذلك فى أى عصر) و إنما هم أولئك الذين اخترقتهم كل الأوحال التى أثارها تمردهم.

للنشر و التوزيع